مجلة بحوث
المدينة المنورة
ودراساتها
العدد ٤٧
العدد الأول لعام ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨ م

- عودة الحجاج المغاربة من مكة المكرمة وإجراءات الوقاية على متن السفينة ضد عدوى الجدري.
- التعليم في عصر الخلفاء الراشدين (مراحله، وطرقه، وأساليبه).
- العمارة العثمانية لمسجد قباء خلال عهد السلطان محمود الثاني.
- تحصينات المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ.

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة
أسسه الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز - يرحمه الله - عام ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م
Al-Madinah Al-Munawwarah Research & Studies Center

عـــــــــــــودة الحجـــاج المغاربـــة من مكـة المكرمـة وإجـــراءات الوقايـــة علـــى مـــتن الســـفينة ضـد عـدوى الجُـــدَري

تأليـــــــف:

لـــويس ليـــــون طيـــراس

ترجمة وتعليق:

محمـــــــــد أمـــــــــين

أستـــــاذ التعليـــم العـــالـــي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ فاس

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مقدّمة

ما من أحد إلا ويبحث عن ضالته حيث يجدها، كما ذهب إلى ذلك أحد حكماء عصر لويس الرابع عشر[١]. واقتناعًا مني بهذه الحقيقة، أساتذتي الأعزاء أعضاء لجنة المناقشة، فقد اخترت موضوع بحثي انطلاقًا من تجربتي في أحد أسفاري البحرية العديدة والبعيدة. وكان ذلك اختيارًا صعبًا ومختلفًا تمامًا عما تعوّد عليه طلاب مدرسة مونوبليي.

إنني أغتنم مناسبة عرض أطروحتي للمناقشة لأعبر عن شكري وتقديري للسادة أساتذة مدرسة مرسيليا Marseille وكلية مونبوليي، ولأعبر للجميع وبشكل علني عن مدى عرفاني لتشجيعهم إياي. وأتقدم بشكري الخاص إلى البروفيسور نيبفو Nepveu، من مرسيليا، الذي كان

(١) حكم لويس الرابع عشر فرنسا من عام ١٦٤٣ وحتى وفاته عام ١٧١٥م، واشتهر بلقب "الملك الشمس" لاهتمامه بالآداب والفنون. أما الحكمة المنسوبة إلى حكيم مجهول يعود لعصر هذا الأخير: "ما من أحد إلا ويبحث عن ضالته حيث يجدها"، فقد ورد عند المسلمين ما هو قريب منها وأبلغ وهو حديث منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها"، وقد ورد بصيغ متقاربة لكن علماء الحديث أجمعوا على تضعيفه. أما ضالة الإنسان فمفهوم واسع تدخل فيه أشياء كثيرة وضمنها الحكمة بطبيعة الحال.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مهتمًّا دائمًا بنجاح أبحاثي، أشكره على صبره معي، وألتمس منه العفو عما صدر مني، وأؤكد له أن ذكراه ستظل عالقة بقلبي.

عرضت فكرتي على البروفيسور(١) [٥] المتخصص في علاج أمراض الأطفال، وقدمت له خطة أولية لأطروحتي. فليسمح لي، في هذا اليوم الذي طالما انتظرته، أن أتقدم إليه بالشكر الجزيل وأن أعرب له عن امتناني الكامل على نصائحه الجيدة التي قدمها لي بأريحيته المعتادة.

أما أستاذي البروفيسور بوميل Baumel فكان له الفضل في تكريمي بإشرافه على أطروحتي، وستبقى هذه الذكرى حية وخالدة إلى الأبد. لذا أُؤكّد له عن تقديري العميق، وأعلن بصدق عن مدى امتناني له ما حييت.

لم أكن لأدعي يوما أنني أضفت اكتشافا مثيرا في الطب، وأكتفي بعرض ما هو في ملكيتي الخاصة، أو بالأحرى ما عاينته ودوّنتُه واحتفظت به منذ سنوات على متن باخرة للملاحة التجارية، حيث كنت مسجّلًا ضمن الطاقم طبيبًا صحيًّا.

أما تقسيم هذا العمل فهو على النحو التالي:

(١) الإشارة إلى البروفيسور نيبفو Nepveu.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١) الانطلاق من مرسيليا والوصول إلى جدة ثم ينبع.

٢) ركوب الحجاج المغاربة على متن السفينة "جرغوفيا" والانطلاق من ينبع.

٣) الوصول إلى السويس وتلقي الأوامر بالتوجه إلى الطور واكتشاف حالات الإصابة بالجُدَري؛ وصف الطور ومحجره الصحي؛ إعادة المصابين بالجدري إلى السفينة؛ بيان شفوي من طبيب الموقع.

٤) حول عدوى الجدري.

٥) مغادرة الطور؛ المرور عبر قناة السويس؛ نزول ٤٠٠ حاج بطرابلس الغرب؛ أمام مليلية [٦]- إنزال الحجاج في موغادور[١] Mogador- في الطريق إلى مرسيليا؛ الوصول إلى مرسيليا.

(١) أصل الكلمة أمازيغي وهو "أمكدول" (أمغدول) أي المحروسة الذي حرّفه البرتغاليون إلى "موغادورا" (ق.١٠هـ/ ١٦م) ثم أطلق عليها الإسبان بعد ذلك اسم "موغادور". أما المدينة الحديثة "الصويرة"، وتعني الصورة أو اللوحة، فيرجع تأسيسها إلى عام ١١٧٨ هـ/ ١٧٦٥م على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٦) نتائج السفر والتقرير المرفوع إلى وزير الداخلية.

٧) ما تمّ إنجازه.

٨) ما يتعيّن القيام به.

الأساتذة العلماء، أولئك الذين خلفوا ألمع الأطباء الذين نرى صورهم على جدران هذه القاعة، السادة أعضاء اللجنة الموقرة، لي عظيم الشرف أن أتقدم إليكم بهذا العمل المتواضع للحكم عليه.

***

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الأول:
الانطلاق من مرسيليا والوصول إلى جدة وينبع ووصف الميناءين

غادرت الباخرة "جرغوفيا" Gergovia ميناء مرسيليا، في الخامس من يونيو عام ١٨٩٦م، على الساعة التاسعة مساءً، وعلى متنها طاقم مكون من اثنين وثلاثين بحّارًا، وتعود ملكيتها إلى إحدى كبرى شركات الملاحة المرسيلية(١). وقد شُحنت بكميات وفيرة من الأدوية ومواد

(١) تعود ملكية الباخرة جرغوفيا إلى الشركة الفرنسية سيب فابر Cyp-Fabre للملاحة البحرية، وهي شركة من مرسيليا متخصصة في النقل البحري للبضائع والأشخاص عبر البحار منذ عام ١٨١٩ وحتى مطلع القرن العشرين، وقد ملكت على امتداد هذه المدة ٥٠ سفينة بين شراعية وبخارية. وتم بناء السفينة "جرغوفيا" في غرينوك Greenock باسكتلندا عام ١٨٨٣، وخدمت في الخطوط البحرية الخاصة بالشرق العربي والحجاز، وأحيانا خط نيويورك وأمريكا الجنوبية. وعادت للعمل على خط مرسيليا-بيروت عام ١٩٢٢، وأصبحت خارج الاستعمال عام ١٩٢٤. طولها 88,2 متر، وعرضها 11,14 متراً، وتزن ٢٥٠٠ طن، وتبلغ قوة محركها ١٦٠٠ حصان، وسرعتها ١٣ عقدة، وتسع ل ٢٣ مسافرا داخل حجرات السفينة، و٩٠٠ في المكان المخصص للمسافرين بين الجسرين، والسفينة تجارية لكنها خضعت لتعديلات تسمح باستقبال الركاب.

- Compagnie française de navigation à vapeur (Cyp-Fabre), Paris, C.F.N.V., 1926, 36 p.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التغذية الضرورية للسفر. وغني عن القول إن حالة السفينة كانت جيدة، إذ تم دهنها من الأسفل إلى الصاري؛ كما تم طلاء جسور السفينة بالجير بحيث أصبحت صالحة للاستعمال، وكانت خزانات المياه ممتلئة، وينبغي أن تبقى على هذه الحال بشكل دائم، وذلك بفضل آلة تقطير المياه وتصفيتها الموجودة في المكينة.

الباخرة "جرغوفيا" (١)

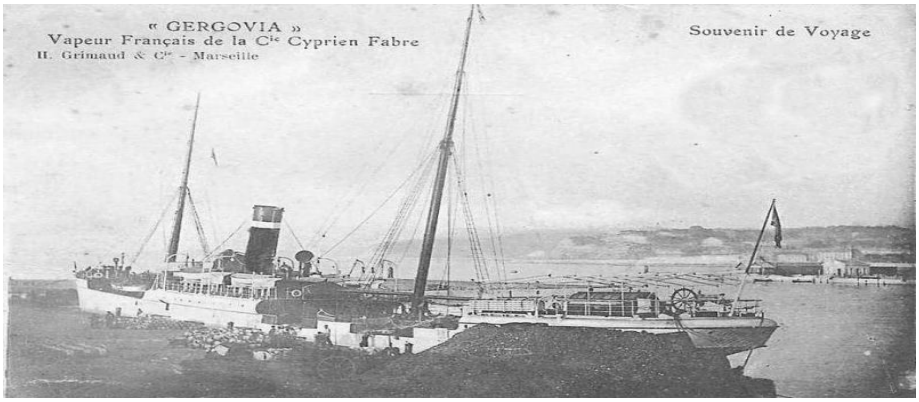

(صورة رقم ١)

(١)http://pages14-18.mesdiscussions.net/pages1418/Forum-Pages-d-Histoire-aviation-marine/marine-1914-1918/gergovia-cyprien-fabre-sujet_3459_1.htm.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

انطلقت السفينة وهي تحمل عَلَمًا أصفر لكي تتجنب العشرة أيام من الحجر الصحي المفروضة على السفن قُبالة ميناء جدة[١]، وهو الوجهة التي أنهى إليها قائدها المسير.[٩]

الواقع أن السلطات الصحية بهذا المكان سمحت لنا بدخول الميناء دون أية عراقيل، بعد تأكدها من قدومنا مباشرة من فرنسا ودون أن نتوقف في أي مكان طوال الرحلة. ومع ذلك، وفي اليوم نفسه، وبعد بضع ساعات، توجهنا للرسو قبالة ينبع[٢] في انتظار ركوب الحجاج المغاربة العائدين من المدينة المنورة بعد زيارتهم لقبر نبي الإسلام [محمد ﷺ].

منذ انطلاقنا من مرسيليا وإلى هذا اليوم لا شيء يستحق الملاحظة. فالطقس الجميل يُحالفنا، والكل كان يتمتع بصحة جيّدة، ومع ذلك فقد حرصت أن أوصي البحارة، عند وصولنا إلى قناة السويس، بوضع خوذة الفلين مغطاة بقماش أبيض على الرأس تفاديًا لضربات الشمس، خاصة وأن حالات الإصابة في هذه الجهات تكاد لا تحصى.

(١) أي تبقى السفن راسية طوال تلك المدة حتى يتبين لمراقبي الصحة التثبت من عدم وجود أية أوبئة أو أمراض معدية.

(٢) تقع مدينة ينبع إلى الشمال من جدة وتعرف بينبع البحر، تمييزا لها عن ينبع النخل التي تبعد عنها بقرابة ٤٠ كيلومتراً، وتعتبر ميناء المدينة المنورة بامتياز على البحر الأحمر. وكانت دائما نقطة انطلاق حجاج البحر القادمين من المدينة المنورة والمتوجهين إلى مصر وبلاد المغاربة وغيرها من البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبالرغم من أن هذا الأمر يبدو، للوهلة الأولى، أنه غير ضروري فإنني أعتقد بأن إعطاء وصف مفصّل شيئًا ما لجدة ولينبع سيكون مفيدًا للتعريف بهذه البقاع التي اشتهرت بفضل الإسلام. وسيظهر لنا حينئذ مدى التخلف الذي توجد عليه هاتان المدينتان فيما يعتبر مهد الحضارة الإسلامية(١).

ميناء جدة التاريخي(٢)

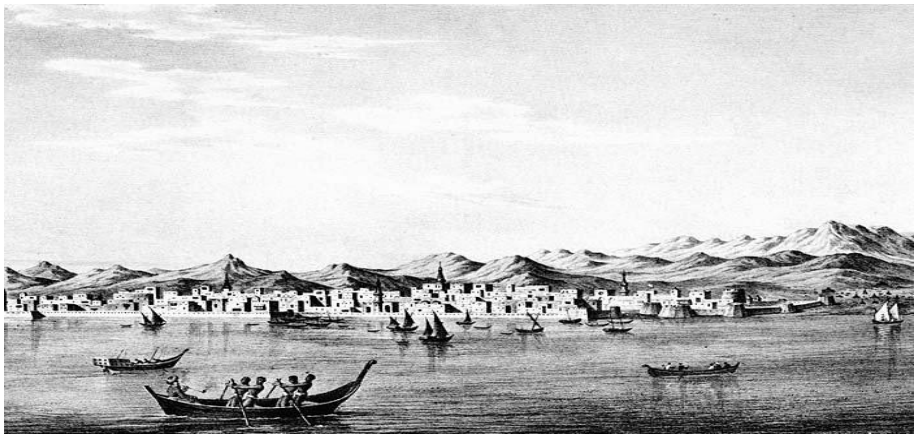

(صورة رقم ٢)

(١) هذا الغمز واللمز المسيء للإسلام والمسلمين تكرر مرارا من طرف المؤلف، ووصل أحيانا إلى درجة ما يمكن اعتباره عنصرية مقيتة حضنها وروج لها الفكر الاستعماري الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، الذي ركز حينها على فكرة تخلف البلاد الإسلامية المستعمرة ودور الغرب في إخراجها إلى أنوار الحضارة الغربية.

(2)https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%AF%D8%A9#/media/File:Jeddah_1924.jpg

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن جدة، وهي ميناء مكة المكرمة، تبعد عن هذه الأخيرة بستين ميلا في اتجاه الغرب، وهي ذات شأن عظيم في البحر الأحمر، وتقع في إقليم الحجاز في سهل واسع من الرمال، يمتد أمام سلسلة من التلال تبعد عشرة أميال عن البحر. حينما ينظر إليها المرء من عرض البحر، تظهر المدينة بمآذنها البيضاء في منظر رائع ومهيب، وهي محاطة بأسوار في شكل مربع تمتد كيلومترًا واحدًا من كل جهة، تتخللها أبراج من مسافة إلى أخرى، وفي الزوايا من جهة البحر توجد قلعتان رئيسيتان في كل واحدة منهما عشر فتحات، لكن المدافع المقامة فيها قليلة. وللمدينة ثلاثة مداخل في الجهة المقابلة للبحر: المدخل الجنوبي، وهو الرئيسي، يقود إلى البازار الكبير؛ والباب الشمالي وهو [١٠] الأنسب للوصول إلى القنصليات؛ لكنه لا يُفتح إلا نادرًا بعد الغروب. وهناك باب في كل جانب من الجوانب الأخرى؛ والباب الجنوبي دائما مُقفل، أما الشمالي الشرقي فيستعمله الجميع، وأخيرًا الباب الشرقي المعروف بباب مكة المكرمة وقد أصبح الآن مسموحًا للأوربيين المرور من خلاله.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جدة: المدينة المُسوّرة والميناء(١)

(صورة رقم ٣)

وفي الجهة الشمالية من المدينة توجد طواحين هوائية وبالقرب منها قبر كبير، طوله ٢٨ مترا وعرضه بين ٦ و٧ أمتار، يعتقد أنه قبر حواء [عليها السلام]. أما الأزقة فضيقة وغير منتظمة، والبيوت مبنية في الغالب من الجير المرجاني. بعض البيوت الجديدة كبيرة وحسنة البناء.

قُدِّرَ عدد سكان مدينة جدة عام ١٨٩٠م بحوالي ٢٨٠٠٠ نسمة، وهم مزيج من الهنود والأفارقة وغالبيتهم من العرب. ويمر من المدينة سنويًا حوالي ٤٠٠٠٠ حاج، ولهذا العدد من الناس الفضل فيما يعرفه

(١)https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%AF%D8%A9#/media/File:Jeddah-1938.jpeg.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الميناء من نشاط وازدهار في مواسم الحج. وتعد جدة إلى حد ما أهم ميناء تجاري رئيسي بين آسيا والهند وإفريقيا. وحسب بعض المعطيات التي وصلتني فإن ٢٥٠ سفينة دخلت الميناء خلال عام ١٨٩٠م [١].

ويقيم في جدة، بصفة دائمة، نائب للقنصل الفرنسي، ويخضع كل ما يصل من الهند لحجر صحي لمدة عشرة أيام، أما ما يصل من جاوة[٢] فلا تتجاوز مدة الحجر عليه خمسة أيام.

(١) لمزيد من المعلومات حول عدد السفن وعدد الحجاج وجنسياتهم خلال نفس العام، يراجع: محمد أمين، موسم حج سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م من خلال تقرير دبلوماسي فرنسي، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ٣٨، شوال ١٤٣٣هـ، ص. ١٥٩-١٩٢.

(٢) جاوة هي إحدى الجزر الإندونيسية، وتتميز بارتفاع عدد الحجاج المنسوبين إليها، ربما لاستقرار أعلى نسبة للسكان المسلمين فيها مقارنة مع الجزر الأخرى، ولكونها كانت محطة يجتمع فيها الحجاج من باقي الجزر قبل الرحيل باتجاه البقاع المقدسة. ولعل عدم اشتهارها بظهور الأوبئة فيها هو ما يفسر قصر مدة الحجر الصحي المفروض على حجاجها وفي المقابل اشتهرت الهند بانتشار الأوبئة بين سكانها، وهو ما يفسر خضوع حجاجها لمدة حجر أطول. كانت الكوليرا والجدري منتشرين في ولاية بومباي بالهند قبل عام ١٨٩٠م، كما يؤكد ذلك كيز Guès، القائم بأعمال القنصلية الفرنسية في بومباي في تقرير وجهه إلى وزير الشؤون الخارجية في باريس، ومما ذكره أن: "..الكوليرا والجدري تسببا سنة ١٨٨٧-١٨٨٨ في سقوط ضحايا أكثر من السنة الماضية.." ورد هذا في:

=

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومن فرط الالتزام بهذا النظام كان بالإمكان فرض الحجر على سفينتنا القادمة من فرنسا لو لم تكن ترفع علم الصحة.

ولإتمام الحديث عن جدّة يمكنني إضافة أن هذه الأخيرة يربطها كابل لاستخدام الهاتف يصل جدة بميناء سواكن في السودان، وهذا بدوره يمتد إلى السويس وعدن، وكل موانئ العالم حيث توجد خدمة تليغرافية، وهناك أيضًا خط هاتفي يربطها بمكة المكرمة. ويوجد بمدينة جدة أيضًا بازار كبير أشرت أعلاه [١١] إلى طريق الوصول إليه، وهو مزود بشكل جيّد بمختلف المؤَن من لحوم وخضراوات، لكن المياه متوفِّرة.

أما التساقطات السنوية فتقتصر على بعض الأمطار المتفرقة في شهر ديسمبر ويناير. وتكون مناسبة للسكان لملْءِ الخزانات والصهاريج التي يملكونها، وتستعمل لتغطية حاجياتهم السنوية، ويصبح ثمن المياه في مواسم الحج خرافيًّا.

=

-Bulletin Consulaire français : *Recueil des Rapports Commerciaux adressés au Ministre des affaires Etrangères par les Agents Diplomatiques et Consulaires de France à l'Etranger* / XIXe volume – 1er Semestre 1890, Paris, Imprimerie Nationale, M DCCC XC, p.78.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولهذا السبب وجب على السفن التي تنقل المسافرين أن تتوفّر على أجهزة لتحلية المياه المالحة، لتجنّب أي نقص محتمل في المياه.

ولذات الغرض، ورد في المرسوم المنظّم لنقل الحجاج على متن السفن، في جلسة يوم ١٦ فبراير ١٨٩٤م[١]، أنه يجب التزام أرباب سفن النقل بالشروط المتعلقة بتوزيع الماء على الركاب، مع التقيّد بالكميّة والجودة المطلوبين.

إن أهمية الماء بالنسبة إلى العربي تأتي في المقدمة، فلابد من توفره، ويشترط فيه الجودة العالية وهو مطلب أساسي. ويؤكد ذلك ما حصل يومًا، ذلك أن الميكانيكي المشرف على مصلحة توزيع المياه في السفينة أخطأ في فتح الصنبور الخاص بالماء العذب وفتح الصنبور المخصص لماء البحر المالح، وكاد الأمر أن يُؤدّي إلى بداية ثورة وفوضى على متن السفينة، لولا أننا نجحنا في تهدئة الوضع بإعطاء وعود لشيوخ القبائل بسقي مياه العيون العذبة عند أول توقُّف لنا بأحد الموانئ.

يتم توزيع المياه يوميا بانتظام، صباحًا ابتداءً من الساعة السادسة وتنتهي العملية بشكل اعتيادي حوالي الساعة التاسعة. نُعطي كل واحد

(١)Procès-verbaux de la conférence de Paris, 1894, titre III, article 12.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من الركاب أربع ليترات، وتوضع تأشيرة على بطاقة قد تسلّمها كل مسافر عند صعوده إلى السفينة.

ينبع: تُعتبر بوابة المدينة المنورة وميناءها الجمركي، يحكمها أفندي تركي وتوجد بها حامية عسكرية. كان في الميناء حين وصولنا فرقاطة خشبية قديمة، تحمل علم القيادة [١٢] البحرية، وبالرغم من ضعف التسليح البري والبحري، لم يُهتَمّ بوجودنا، ولم نُسجّل أي تخوّف من جانب السلطات المحلية تجاه سفينتنا وهي على مشارف المدينة.

ينبع: المدينة القديمة والميناء(١)

(صورة رقم ٤)

(١) http://www.almrsal.com/post/211575/yanbu-in-1917.

هذه الصورة التقطت للمدينة القديمة (المسورة) والمرسى وهي تعود إلى عام ١٩١٧، ويظهر من خلالها أن وضع الميناء تحسّن عن ما كان عليه حين وصول باخرة "جرغوفيا" بحيث أصبح يستقبل السفن الكبيرة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تقع مدينة ينبع على ساحل رملي منخفض، وعلى الشاطئ الشمالي للسان بحري (خليج). ولما كانت المدينة تستقبل أعدادًا من الحجاج القادمين من المدينة المنوّرة أو المغادرين لها، فإن عدد سكانها غير مستقر بشكل دائم. وتجارتها أقل أهمية من تجارة جدّة، ولا يستقبل ميناؤها السفن الكبيرة، والحركة فيه مقتصرة على القوارب، وأغلبها مخصص لنقل الحجاج. وتقع المدينة في مكان قاحل لا توجد فيه نباتات، ويوجد بها حوالي ١٥٠٠ منزل، وهي تحتل مساحة شاسعة من الأرض، وكانت في الماضي محاطة بسور كبير تتخلله أبواب، وهو اليوم عبارة عن خراب مثله في ذلك مثل الكثير من البيوت، إن لم نقل كلها، وأغلبها مبنية بالجير المرجاني سريع التحلل والاندثار.

ينتمي أغلب سكانها إلى قبيلة جُهَينة[١]، وعيون المياه غير موجودة في ينبع، مثلها في ذلك مثل جدة. ويتم سقي المياه من قِبل حمّارين من عين بعيدة بعض الشيء عن المدينة، في قرب وأوعية مشكوك في نظافتها. وعند وصول تلك المياه تكون -لا شك في ذلك- قد فقدت عذوبتها وتشبعت بالعناصر المسبّبة للأمراض، فتعيث فسادًا كبيرًا في وسط هذا "الشعب المتعصب"[٢].

(١) من قبائل قضاعة ومجالها الرئيس هو الحجاز وخاصة منطقة العيص وينبع وما جاورهما. كان لها دور فعال في نصرة الإسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده.

(٢) ترددت مرارا إشارة المؤلف للمسلمين على أنهم شعب متعصب أو متعصبون، وهذا إن دل =

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويضاف إلى ما سبق ذكره، تلك المعسكرات(١) المحيطة بأسوار المدينة، التي تشبه أعشاش نمل بشري، وأيضًا أعدادًا لا تحصى من الكلاب السائبة المغطّاة بالجروح، وليس لها أصحاب، تنام النهار على الرمل، وتقضي الليل في النباح، ويمكنكم أيها السادة(٢) الحُكم فيما إن كان الكُتَّاب الذين تناولوا أصل الكوليرا كانوا على حق(٣) !

=

على شيء فإنما يدل إما عن سوء فهم منه لحقيقة الإسلام ومبادئه، وخلطه بين واقع البلاد الإسلامية المتخلف وتصرف المسلمين الصادر عن جهل بقيم الإسلام؛ أو تشبعه بالفكر العنصري الغربي المتطرف والمعادي للمسلمين الذي كان يروج خلال مرحلة التوسع الاستعماري.

(١) المقصود بها معسكرات الحجاج القادمين من المدينة المنورة، من جنسيات ومناطق عديدة، يقيمون خارج سور المدينة في انتظار السفر إلى بلدانهم على متن سفن نقل الحجاج. غالبا ما يضطر بعض الحجاج إلى الإقامة لأيام أو أسابيع أو شهورا، خاصة المعدمين منهم، في انتظار إيجاد حل لترحيلهم، كما يثبت ذلك ما حصل لسفينة جرغوفيا بعد حمل ركابها الرسميين، حيث حاولت سلطات ميناء ينبع إركاب ما يزيد عن ثلاثمائة حاج من المتخلفين ممن تقطعت بهم الأسباب في ينبع بغية حل مشكلهم.

(٢) المقصود هنا هم أعضاء لجنة مناقشة رسالة دكتوراه لويس ليون طيراس.

(٣) جدير أن أنبه أن الهند هي منبع داء الكوليرا في ذلك العصر، وكانت عدواها تنتشر في الحجاز أثناء مواسم الحجّ وقد وردت مع الحجيج الهنود.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الثاني:
ركوب الحجاج المغاربة على متن السفينة "جرغوفيا" ومغادرة ينبع

استمر رُسوّ السفينة "جرغوفيا" قبالة ميناء ينبع حوالي خمسة عشر يومًا تقريبًا. كنّا في انتظار وصول القافلة التي تحمل رُكّابنا المغاربة، الذين كانوا في غالبيتهم حريصين على زيارة المسجد النبوي [الشّريف] بعد أدائهم مناسك الحج. والذي يُعدّ رابع[1] أركان الإسلام بعد الصلاة والزكاة والصيام، لكنه ليس واجبًا إلا على من له القدرة على أدائه[2]. أما زيارة المسجد النبوي [الشّريف] والوقوف على قبر النبي [ﷺ] فمطلوبة ومُرغّب فيها وليست واجبة.

(١) أغفل لويس ليون طيراس اعتبار الشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) أول أركان الإسلام الخمسة، أما الحج فيعد خامس تلك الأركان وليس رابعها كما أشار خطأ إلى ذلك.

(٢) ما ذكره المؤلف يؤكده حديث جبريل عليه السلام من ضرورة توفر القدرة لأداء مناسك الحج: فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : " يا محمد أخبرني عن الإسلام " ، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال : "صدقت " ، فعجبنا له يسأله ويصدقه..." رواه مسلم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبالرغم من أن زيارة المدينة المنوّرة اختيارية على هذا النحو، فإن الحاج، لا يرى كمال مناسكه إلا بزيارة المدينة حيث قبر نبي الإسلام.

و"تحتل المدينة المنوّرة، أو مدينة الرسول [ﷺ] موقعًا رائعًا، تحيط بها الحدائق والبساتين عند سفح جبل أُحد. وعندما تكتحل عيون الحاجّ بما يراه من أشجار المدينة وبساتينها يرفع صوته بالتكبير والصلاة على النبي [ﷺ] من أعماق قلبه" (١). [١٤]

منارات الحرم النبوي الشّريف

ويظهر انتشار المزارع خارج أسوار المدينة المنورة(٢)

(صورة رقم ٥)

(1) Proust, Orientation nouvelle de la politique sanitaire.

لم يشر المؤلف إلى بقية تعريف المرجع، مكان ودار النشر والصفحة.

(2)http://www.alwatan.com.sa/Dialogue/News_Detail.aspx?ArticleID=72720&CategoryID=4

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تبلغ المسافة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة عبر الصحراء حوالي ٤١٣ كيلومتر، وتتراوح مدة قطع هذه المسافة بين اثني عشر وخمسة عشر يومًا.

لم يستغرق ركوب الحجاج على متن السفينة "جرغوفيا" إلا بضع ساعات، وتمّت العملية بشكل مُزرٍ وبائس، فبمجرد إعطاء إشارة السّماح بالركوب اتجهت صوب السفينة سحابة من القوارب والسّنابك[١] محمّلة بأعداد مهولة من الناس الذين نفد صبرهم واشتد حنينهم إلى العودة إلى بلادهم[٢]. رَمقتُ أحد هؤلاء "المتعصبين"[٣] وقد ألقى بنفسه في الماء مع متاعه على ظهره حيث التحق بالسفينة سباحة، إما لأنه لم يجد مكانًا على متن تلك القوارب، أو لأن موارده المالية لم تكن تسمح له بدفع ثمن

(١) السنابك مفردها سنبك أو سنبوك وهو الزورق الصغير الذي يستعمل غالبا في المسافات القصيرة وخاصة في الملاحة المعروفة بالمساحلة.

(٢) ذكر المؤلف حنينهم إلى أكواخهم وصحاريهم، إمعانا في الإشارة إلى عدم تحضرهم.

(٣) هذه إحدى سقطات المؤلف العنصرية تجاه الحجاج، وقد تكررت في متن بحثه، وهذا الوصف غريب على طبيب مهمته النبيلة هي خدمة الإنسان بغض النظر عن انتمائه الديني والعرقي. كان عليه احترام الاختلاف وعدم كيل الشتائم والأوصاف النمطية القبيحة لمن هو أصلا موجود لخدمتهم ورعايتهم والتخفيف عليهم؛ كما أن وصفه هذا يتنافى مع قسَم المهنة الوارد في نهاية رسالته.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تذكرة العبور إلى السفينة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الكثير من هؤلاء المساكين ينطلقون في رحلة الحج الطويلة بدون التفكير فيما إن كانت إمكاناتهم المادية تسمح لهم بتغطية تكاليف حاجياتهم الضرورية من غذاء ونقل وغيره.

كان ذلك بحق مشهدًا غريبًا وحزينًا لم يسبق لي أن رأيته في حياتي. بدنوّ أولئك البؤساء من السفينة كنت أسمع أصواتًا تعكس حالة الخوف الذي ينتاب أصحابها وهم على الحافة.

إنه عراك حقيقي ! في كل جنبات السفينة، برغم الأوامر الصارمة التي أعطيت للبحارة بأن لا يتم الصعود إلا بعد دفع ثمن تذكرة السفر، فقد عَمّت الفوضى بشكل لم يكن منتظرًا. كان المسافرون يتقاطرون ويتسلّقون السفينة من كل الجهات وبشتى الطرق، الكل في حالة من الخوف والهلع من أن يتخلّف لفترة أطول في هذه الأرض المقدسة وغير المضيافة[1]. كانوا جميعهم في حالة من الإعياء الشديد والجوع، ويتمنون الركوب لعلهم يجدون ما يسدّون به الرمق على متن السفينة. وأي قانون

(١) لعل طيراس يعكس بتعبيره ذاك قلق غالبية الحجاج من أن يتخلفوا عن ركب المغادرين والبقاء مدة أطول في ينبع التي تتميز بقيظها ورطوبتها الشديدين وندرة الماء وصعوبة المعيشة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أو سلطة يمكنها التحكم في شعب نصفه يتضوّر جوعًا ! إنّ الحالات نادرة في مثل هذا الوضع، وكان ينبغي للحكمة والرّوية أن تكون هي الغالبة، ربما هذا صحيح وممكن لدى الشعوب المتحضرة [١٥] لكن لا يعوّل عليه لدى شعوب متوحشة (١).

سعر الرحلة لا يغطي سوى ثمن تذكرة النقل بدون تغذية، ومع ذلك فإن الشركة خصّصت كمية كبيرة من الوجبات، من خبز وبسكوت وقهوة للفقراء من المسافرين.

وفي ظل حالة الفوضى العارمة، عند محاولة بعض السنابك الاقتراب من السفينة، ازداد المشكل استفحالًا عند سُلّم الصعود، الجميع كانوا يريدون الركوب دفعة واحدة، المتقدمون يمنعون من خلفهم من أن يسبقوهم، وهؤلاء يمسكون ببرانس(٢) أولئك لمحاولة إسقاطهم،

(١) يبدو أن طيراس مشبع بالفكر الاستعماري العنصري، الذي كان يرى في الشعوب المستَعمَرة أنها متوحشة، وبأنه هو من رَسَّخ الحضارة لديها وأخرجها من هذا الوضع المتخلف. ولعل التاريخ كشف بجلاء عن وحشية المستعمر الأوروبي "المتحضر" من خلال سياسته العنصرية ودمويته في التعامل مع كل من حاول كسر أغلال المستعمر سواء كان من المسلمين أو غيرهم.

(٢) البرنس نوع من اللباس التقليدي، وهو نوع من اللحاف الصوفي المفتوح من الأمام والواقي من البرد خاصة في الأسفار الطويلة مثل الحج وغيره.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والتدافع كان قويًّا للصعود في الوقت نفسه. ودائمًا، كما هو الحال في مثل هذا الوضع من الازدحام، تتوقف الحركة فلا يستطيع أحد التقدم أو التأخر. كان السلم مليئًا، ولحسن الحظ أنه كان مثبتًا بشكل جيد، وإلا لكنا أمام كارثة غرق رهيبة. وما من شك في أنّ غالبيتهم لا يحسنون السباحة، خاصة مع وجود الأطفال الصغار في سن مبكرة، أما النساء المتقدمات في السن فكنا نسمع شكاواهن من وسط تلك الزحمة. وأخيرًا تمكنا من تنفيس هذا الطوفان من الناس. الركاب الأوائل الذين وصلوا إلى سطح السفينة كانوا في حالة ارتباك شديدة، لا يدرون أين يتوجهون، كذلك الذي له حق في الاختيار بين أشياء متشابهة فلا يدري أيها يختار، بل ويعتقد أن الذي وقع عليه اختياره هو الأسوأ، ينظر يمنة ويُسرة، إلى الأمام وإلى الخلف، ثم بعد صعود الركاب الآخرين يتوجهون إلى الأمام، ويستقرون حيث يحلو لهم القرار، وبمجرد أن يحتل الواحد منهم مكانًا ما، يسعى إلى البقاء فيه حتى نهاية الرحلة، وهذا صحيح إذ بسبب معاناته خلال أداء مناسك الحج يخشى من ضياع مكانه فيما لو غادره في مرحلة الركوب. وأخيرًا، بعد امتلاء السفينة عن آخرها وعند إعطاء قائدها إشارة الانطلاق، بدأت مساومات السلطة المحلية في ميناء ينبع [١٦] مع قائد السفينة، بعدم منحه البراءة أو شهادة الصحة والسلامة العامة،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن رفض إركاب ٣٠٠ من الحجاج الإضافيين الذين تقطعت بهم السُّبُل. كانت لهجة التهديد قوية لكن القبطان أخذ القرار بالانطلاق قبل وصول أولئك الحجاج إلى السفينة التي كانت محملة بأكثر من طاقتها. ولو حصل ذلك لارتفع عدد الركاب من ألفي (٢٠٠٠) راكب إلى ألفين وثلاثمائة (٢٣٠٠) وهو عدد يتجاوز بكثير الحد المسموح به قانونيًّا وهو ١٢٠٠ راكب فقط.

– ما أن غادرت السفينة حتى انطلقت أصوات عالية منبعها صدور المسافرين، لا ندري هل القصد هو السلام على الأرض المقدسة أم صيحات الفرح...[كذا].

مباشرة بعد ذلك تحول الوضع إلى ساحة معركة حقيقية بين الحجاج استعملت فيها العصي والخناجر، والسبب في ذلك الاضطراب هو شدة الاكتظاظ وانعدام الأماكن. وما زاد من استفحال المشكلة هو أنه إضافة إلى ارتفاع عدد الحجاج، كانت هناك الأمتعة الزائدة من صناديق وعصي وأوتدة الخيام وأواني وأكياس الفحم الحجري، وأكياس الطعام ومواقد الطهي وقرب الماء المصنوعة من جلد الماعز التي لا غنى للواحد منهم عنها إلى غير ذلك مما يُحتاج إليه في السفر. ثم بأمر من قائد السفينة، لم يسمح للحجاج بالاحتفاظ إلا بما يحتاجونه حقيقة لطعامهم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وراحتهم. أما الأشياء الزائدة فتم التخلص منها بإلقائها في البحر كالعصي، وتم الاحتفاظ بالخناجر في قمرة مع وعد بتسليمها لأصحابها عند الوصول. ثم بعد حلول الليل بدأ السكون يعم شيئًا فشيئًا. وبدأ الاستسلام والخلود للراحة جنبًا إلى جنب، وتزاحم الناس وتكدسوا على بعضهم البعض، وامتلأت كل أجنحة السفينة وممراتها بشكل غير معتاد. ومن فرط الازدحام الشديد استقر بعضهم في الممرات وعلى جنبات المراحيض، الناس مكدسون في كل مكان. كان الوضع غير مريح وصعب بالنسبة إلى البحارة خاصة عندما يُحتاج إلى إفراغ الرماد المتخلف عن اشتعال الفحم الحجري، المسلك المؤدي لإنجاز العملية كان محتلا من طرف هؤلاء البؤساء، الذين لم يكونوا يشعرون بأي حرج أو مضايقة. وقد وصل الحال إلى درجة ألّا مجال [١٧] خاصا بمستشفى أو ما يشبهه. حتى المكان المخصص للصيدلية، وهو ضيق للغاية، احتلته إحدى العائلات التي لم أتمكن من إخراجها منه إلا بشق الأنفس عندما احتجت لأخذ بعض الأدوية المخزنة في الدواليب والصناديق.

لاحظتُ أن الجسر المؤدّي إلى ما يسمى الحصن يسمح ببعض الفراغ الذي يمكن استغلاله. لكن الأمر يتطلب أن يكون لي الحق في ذلك، والشيء نفسه بالنسبة إلى حجرات السفينة التي لا يستفيد منها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إلا من لهم القدرة على دفع الثمن ! وماذا كان بوسعي فعله أمام هذا الوضع؟ لا شيء طبعًا، أنا لم أفوض من طرف الحكومة[١]، لم أكن سوى خادم لشركة الملاحة التي اختارتني. ليس بوسعي سوى إبداء الملاحظة، والإعلان عن ذلك، ونشره بمجرد عودتي إلى فرنسا.

هذا النوع من الاستغلال، والرغبة الجامحة في الربح تُعمي الإنسان، ما في ذلك من شك، لكن أن يصل الأمر إلى حد العنف الذي لا معنى له، ويؤدي في مثل هذه الحالات إلى مضاعفات يرثى لها، فهذا مرفوض ومدان.

وصلنا إلى السويس بدون أية مشاكل تُذكر، باستثناء بعض حالات الالتهاب المعوي المزمن المصحوبة بالإسهال التي ظهرت على كثير من الحجاج، ومظاهر الإعياء التام الظاهرة على بعض الشيوخ، بسبب الحرمان، لحد عدم القدرة على التحرك. يحاول بعض أصدقائهم وأقاربهم التخفيف عنهم بواسطة تقطير الماء بأفواههم من خلال خرقة ثوب تغمس في آنية، هذا كل العلاج المقدم لهم. ويُفضّلون الموت على

(١) المقصود طبعا هي الحكومة الفرنسية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أن تُقَدّم لهم الإسعافات من الطبيب[١] الموجود على متن السفينة، بحجة خوفهم من التسمم المفضي إلى الهلاك! لكنهم بالنسبة إلى الجروح وغيرها من الإصابات يقبلون بالضمادات التي يقوم بوضعها بعض الممرضين الجزائريين[٢] الذين يعملون تحت إشرافي. [١٨]

إن انعدام النظافة في وسط هؤلاء الحجاج تسبب في انتشار الطفيليات بينهم، فانتشر القمل الخاص بالشعر والقمل الخاص بالملابس والبدن، وهذا النوع من القمل ينتشر فيما بين المتشردين والبؤساء الذين ينامون في العراء، تحت القناطر وعلى مقاعد الجلوس في مدننا[٣].

(١) لابد في هذه الحالة من استحضار عقلية العداء والخوف والريبة من الآخر، الذي يَدِين بِدِين غير الإسلام، فهو "الكافر" أو "المشرك" الذي يعتقد في المسيحية المُحرّفة، فضلا عن تشككهم من نجاعة الأدوية الجديدة التي أنتجها الأوروبيون وإيمانهم بنجاعة طرق العلاج الشعبي، وهذا ما يفسر تخصيص ممرضين جزائريين مسلمين يقومون برعاية الحجاج صحيًّا ويحظون بثقتهم. ولعل نظرة الحجاج إلى هذا الطبيب الفرنسي تشبه إلى حد بعيد نظرته إليهم حين يصفهم ب "المتوحشين" و"المتعصبين".

(٢) يبدو أنّ بعض أرباب السفن قد وظفوا ممرضين جزائريين في رحلات الحجيج لتسهيل التواصل والقيام بالخدمة المطلوبة على نحو ما أشار إليه طيراس.

(٣) المقصود هو المدن الفرنسية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بطبيعة الحال، فإن نُدرة الماء، والحاجة إلى الملابس النظيفة الذي كان يعاني منه هؤلاء البؤساء لم يكن ليحميهم من القمل. أما الخلاصة التي توصلت إليها خلال المدة التي قضيتها وسط ذلك الحشد من الناس، جعلتني أفترض أن المغاربة[١] يهملون نظافة الرأس والبدن. وعلى متن السفينة كان هناك نساء يكرسن وقتهن لتخليص زبائنهن من قمل الرأس مقابل 0,50 سنتيما للرأس، على اعتبار أنها مهنة تخصهن !.....[كذا]

والغريب أنه في خضم ذلك الاجتياح الكبير للقُمّل في وسط الحجاج، لم يسلم منه أيضا أفراد طاقم الباخرة، وحتى بعض الضباط نالوا بدورهم حظّهم من القُمّل. [١٩]

***

(١) أحسن المؤلف إذ اعتبر ما قاله مجرد افتراض، وهو افتراض خاطئ تماما، فهو لا يدري أن نظافة المسلم مطلوبة دينًا، أما في الظروف الاستثنائية، خاصة حينما يصعب الاستحمام لندرة الماء أو لظروف اجتماعية صعبة، كما هو حال بعض بني جلدته في مدن فرنسا، فبإمكان حصول ذلك، وهذا صحيح بالنسبة لكل أمم الأرض، وليس استثناء يخص الحجاج المغاربة الذين -كما يؤكد ذلك هو ذاته- لم يستسلموا للأمر وبادروا بدفع المال للتخلص من القمل، وهذا في الواقع يُحسب لهم لا عليهم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الثالث:
الوصول إلى السويس وتلقي الأوامر بالتوجه إلى الطور واكتشاف حالات الإصابة بالجدري؛ وصف الطور ومحجره الصحي؛ إعادة المصابين بالجدري إلى السفينة؛ بيان شفوي من طبيب الموقع

إن إطار هذا العمل لا يسمح بالتوسع طويلًا في طبيعة المفاوضات التي حصلت بين السلطات الصحية وقبطان السفينة قبل انطلاقها من ميناء ينبع. وأظن أن تلك المحادثات التي لم نتمكن من حضورها كانت ودية بين الجانبين. لكن الأحداث المتوالية جعلتنا نفترض أن الحاصل فيها كان غير ذلك تماما. والتقارير اليومية التي أودعتُها عند الوصول[١] بين يدي مدير شركة الملاحة البخارية الفرنسية يمكن أن تُفيدَ أكثر من أطروحتنا هذه[٢]. فقد أطلقت العنان لأفكاري في تلك المحاضر اليومية،

(١) أي الوصول إلى مرسيليا بعد نقل الحجاج من ينبع إلى موغادور (الصويرة) بالمغرب الأقصى.

(٢) نتمنى أن تسعفنا الظروف مستقبلًا لزيارة أرشيف الغرفة التجارية في مرسيليا، الذي خبرنا مدى غناه في مواضيع مشابهة، للاطلاع على تقارير الأطباء الخاصة بشركات الملاحة البحرية المرسيلية التي كانت نشيطة في مجال نقل الحجاج وغيرهم من المسافرين.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعبّرتُ بأسلوب كما لو أنني أتحدث شفاهيًّا وبصراحة كاملة. أقول في هذه الأثناء حيث لا شيء يمنعني، كنت أُعتَبر مزعجًا[١] إذ أُسَجِّل بدقة متناهية كل شيء وأُلاحظ كل شيء، أية كلمة طائشة، ومن أي جهة أطلقت. وللأسف لم يكن ذلك إلا كلامًا لا أقل ولا أكثر.

على أي حال، عندما وصلنا إلى قناة السويس[٢] لم يُسمح لنا بالعبور. تُركنا في حالة انتظار بالميناء لمدة أربع وعشرين ساعة على أمل منحنا براءة العبور [٢٠]. تركونا نصرخ ونحتج، وكانت اللامبالاة والصمت هو الجواب الوحيد على ردود فعلنا القوية.

وكم ردّدتُ مع نفسي أن ذلك ليس إلا مجرد مسرحية سيدفع أولئك الحجاج المساكين ثمنها. لقد جاءت الأوامر العُليا من الإسكندرية بأن نتوجه إلى الطور لقضاء حجر صحي لمدة ثمانية أيام.

(١) أي من قبل قائد السفينة وأرباب شركة الملاحة المالكة لـ"جرغوفيا".

(٢) قناة السويس: أمر الخديوي إسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥) بحفرها بإشراف المهندس الفرنسي فرديناند دي ليسابس وتمّ ذلك بين أعوام (١٨٥٦-١٨٦٩)، افتتحت عام ١٨٦٩ وهي ممر مائي طوله ١٩٣كم يربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، وقد حقق هذا الانجاز نقلة نوعية في مجال المواصلات البحرية والدولية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إدارة الحجر الصحي بالإسكندرية[١]

(صورة رقم ٦)

نزل الخبر كالصّاعقة على كل الرّكاب وقوبل باستغراب شديد ! لماذا يُفرَض علينا هذا التأخير، بينما خرجنا من ينبع بدون أية ملاحظة حول الوضع الصحي للحجاج. وهنا فكّرت في أولئك الحجاج الثلاثمائة الذين رفضنا استقبالهم على متن السفينة في آخر لحظة، وفي سرعة انطلاقنا من ينبع، حيث لم يخضع الحجاج للمراقبة، وفي وضع الإقصاء والتهميش الذي كُنتُ عليه على متن السفينة، وخاصة بسبب الدور المنوط بي على ظهرها، والذي كان يعتبر غير ضروري !

(1) Sylvia Chiffoleau, Entre initiation au jeu international, pouvoir colonial et mémoire nationale : le Conseil Sanitaire d'Alexandrie, 1865-1938, Dossier: Figures de la santé en Egypte, p. 55-74.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لم تتم الأمور على هذا النحو عام ١٨٩١م، خلال الرحلة التي قام بها الدكتور ل. دولارو l. Delarue: "عند مغادرتنا لجدة، يقول زميلنا: فحصتُ بعناية الركاب قبل صعودهم إلى السفينة. غالبيتهم وصلوا للتو من مكة [المكرمة]، كنت أتوقع وجود بعض المصابين بالكوليرا فيما بينهم. لم أقف على أية حالة، سواء خلال الإركاب في جدة أو في ينبع. وقد صعد كل الركاب في جدة، والكثير منهم منهكون لكن في منأى من أي خطر يذكر. وفي ينبع تم إركاب حوالي ١٣٦٦ حاج، واستمرت العملية طوال يوم ونصف. وكنا على بعد ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر من الساحل"[١].

بمجرد وصولنا إلى الطور، بدأنا بإنزال الحجاج وتوجيههم إلى المعسكر، ليخضعوا لما يسمى بالتطهير[٢]. دامت هذه العملية يومين وبعدها أخبروني أن خمسة من ركابنا مصابون بداء الجدري. حينها أدركت أنني وجدت مفتاح اللغز [٢١] الذي أحاط بعملية الإركاب في ينبع. من يدري لعل هؤلاء المصابين بالجدري تم إنزالهم في الطور من

(١) Louis-Léon Delarue, Thèse de Doctorat, année 1891-1892, Paris

(٢) تتم عملية التطهير بوضع ملابس الحجاج في آلة بخارية اسمها steam disinfetion من ماركة Gereste ويسمح لهم بالاغتسال واحداً بعد واحد.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

طرف سفينة إنجليزية أو مصرية أو غيرهما، وأن القصد هو تحميلنا نحن الفرنسيين المسؤولية كما يحدث ذلك غالبا[١] ؟

ليست المرة الأولى التي يظهر فيها هؤلاء المصابون في الطور. ففي أطروحة دولارو المشار إليها نقرأ أيضًا: "في شاطئ الطور حيث المعسكرات والرمال الصحية، رأيت ثلاثة جزائريين مرضى مصابين بعدوى الجدري خلال أدائهم فريضة الحج". أمتنع عن أي تعليق وأعود للحديث عن مدينة الطور، وعن معسكرها ثم أترك الحديث لأستاذ متميز هو الدكتور بروست Proust .

(١) نظرية المؤامرة وإلصاق المسؤولية بالفرنسيين وليدة المنافسة الاستعمارية الأوروبية بشكل عام، وأججها احتلال فرنسا لمناطق في إفريقيا وآسيا، حيث أصبحت تنافس بريطانيا، وارتبط ذلك بنقل عدوى الأمراض والأوبئة عبر البحار نتيجة القفزة التي شهدتها الملاحة البحرية في عصر البخار، سواء فيما يتعلق بنقل البضائع أو بنقل المسافرين، وخاصة حجاج بيت الله الحرام، حيث ظل نقل عدوى الكثير من الأمراض المعدية لصيقا باتهام بعض شركات النقل البحري من الدولتين أنها تساهلت في المراقبة الصحية للحجاج، ونقل أعداد منهم تفوق المرخص به نتيجة التهافت المحموم على الكسب. وتأتي إشارة طيراس بتحميل الفرنسيين مسؤولية نقل عدوى بعض الأمراض والأوبئة من منطلق تبادل التهم بين القوى الاستعمارية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ميناء الطور[١]

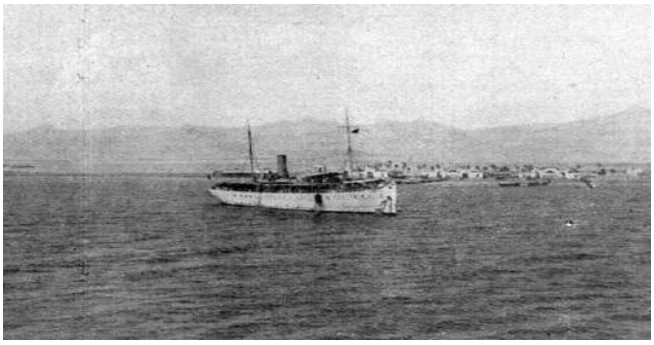

(صورة رقم ٧)

تم بناء مدينة الطور في الجهة الشمالية للميناء، وهي مكونة من بعض البيوت الحجرية، وكنيسة كبيرة، وبستان حيث توجد مياه عذبة. ويتم الاتصال مع السويس ودير جبل سيناء عبر قوافل الجمال، والطريق سيء للغاية.

وعلى بعد ميل ونصف تقريبًا، في الشمال الغربي من الطور، عند سفح بعض التلال المنحدرة، وبالقرب من غابة نخيل، يوجد بناء مربع يعود لدير جبل سيناء. ويتم سقي هذه الغابة بواسطة مياه عين قليلة الملوحة، توجد خلف حائط البستان القريب من التلال. ويمكن أخذ حمام ساخن في هذه العين الممتازة. الموارد المائية للمدينة متواضعة،

(1)Gaston Zananiri, Tor. Historique et quarantenaire, Alexandrie, 1925, p. 85-93.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبالإمكان الحصول على المياه العذبة، وبكمية أقل، لكن مياه العيون المجاورة قليلة الملوحة، ونجد أحيانا بعض الفواكه من المناطق المحيطة.

خلال مواسم الحج، من فبراير إلى مايو[١]، يتم إرسال لجنة صحية من الإسكندرية للإقامة في الطور. لا يزور الحجاج مدينة الطور مباشرة، لكن في حالة وصول أي سفينة إلى السويس ويظهر بين ركابها وباء ما خلال أيام الحجر الخمسة في الميناء [٢٢] يتم تحويلها مباشرة إلى الطور حيث تخضع لحجر صحي أطول.

قاعة فرز الحجاج والأمتعة قبل عملية التطهير[٢]

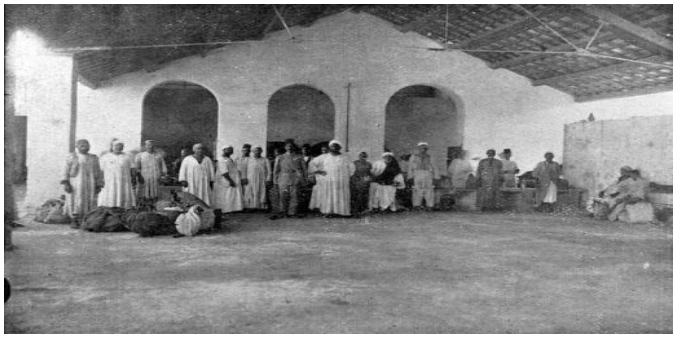

(صورة رقم ٨)

(١) هذا التوقيت يتوافق مع السنوات القريبة من رحلة طيراس إلى الساحل الحجازي، وإلا فالحجّ ليس مرتبطًا بشهور السنة الشمسية بل بشهور السنة القمرية، ومن هنا فهو يتحوّل عبر شهور السنة الميلادية، وتتم دورته على كافة الشهور تقريبًا كل ثلاثة وثلاثين عامًا.

(2) Gaston Zananiri, Tor., op. cit., p. 85-93

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كان هذا حالنا: إما أننا كنا نعلم بوجود حالات إصابة بالجدري على متن السفينة، أو أنه مفروض علينا ترحيل بعض المصابين معنا، وهو ما يعني أننا مغفلون، أو أن الغرض هو استخلاص الرسوم التي كان على كل حاج دفعها مقابل عملية التطهير. وإذا استثنينا هذه الاحتمالات، لم يكن هناك أي سبب لتوجيهنا إلى الطور.

المحجر عبارة عن شاطئ كبير، إنه معسكر واسع، يتم فيه إسكان الحجاج في الخيام(١). وعند الوصول لا يمكن لأية سفينة إنزال ركابها المشتبه في إصابتهم بمرض ما إلا بعد مغادرة سابقتها. وبالقرب من الساحل يوجد المبنى المخصص لتطهير الأمتعة.

ويعتبر معسكر جبل الطور المكان الذي من خلاله يتم حماية مصر والدول المحيطة بحوض البحر البيض المتوسط من الكوليرا، فهو محطة صحية مخصصة لهذا الغرض. ويقع جبل الطور على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر عند سفح جبل سيناء.

(١) ربما كان هذا الوضع سائداً خلال زيارة طيراس للمحجر عام ١٨٩٦م، لكن الأمر تغير مع بداية القرن العشرين، إذ ظهرت صور للموقع وفيه مجمعات سكنية يتقاسمها الحجاج خلال مدة فرض الحجر الصحي عليهم. انظر:

Gaston zananiri, Tor Histor`ue et `uarantione, Alexander, 1925, p85-93.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كل شيء يحتاج إلى إعادة تهيئة في جبل الطور، الذي يتمتع بمنظر طبيعي جذاب، لكن يوجد نقص كبير من حيث التنظيم والمعدات. وقد سبقنا بروست Proust في التعبير عن هذا الواقع أنه من "المعروف أن عمليات التطهير سواء في الأرض أو على متن السفن كانت غير كافية بسبب الأدوات المستعملة غير الملائمة وعدم كفاءة الموظفين".

وحسب أردوان Ardouin فإن المبنى الذي توجد فيه الأفران هو الآخر سيء البناء، حيث الجدران غير ملتصقة ببعضها وغير مطلية بالجير الأبيض. والأرضية رملية غير مبلطة ممزوجة ببقايا القمامة ومبللة بالقرب من فوهة الأفران. أما الحواجز الفاصلة بين جهة ما قبل التطهير وجهة ما بعد التطهير حيث توجد الأفران فغير تامة. ومن بين الأفران الثلاثة الموجودة واحد فقط يعمل. أما مولد البخار فغير كاف بالنسبة إلى الفرنين الآخرين. أما آلات قياس الضغط فلا قيمة لها، وأجهزة قياس الحرارة [٢٣] غير صالحة للاستعمال، ولم يكن باستطاعة الميكانيكي القيام بأي إصلاح لتلك الأجهزة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أجهزة تطهير ملابس وحاجيات الحجاج في قاعات محجر الطور[١]

آلة تطهير أمتعة الحجاج

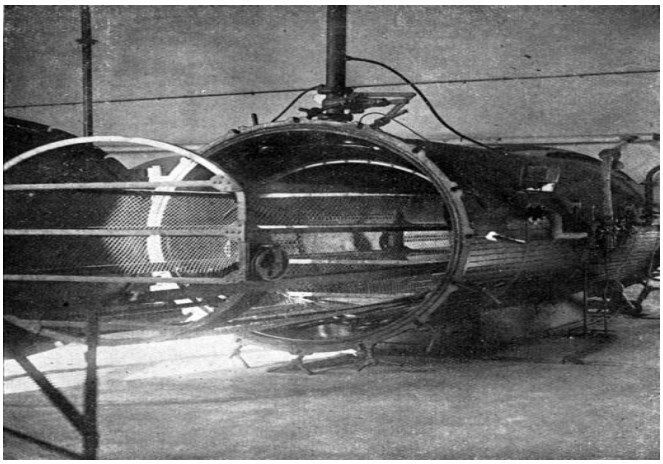

(صورة رقم ٩)

عصّارة الملابس في غرفة الغسيل

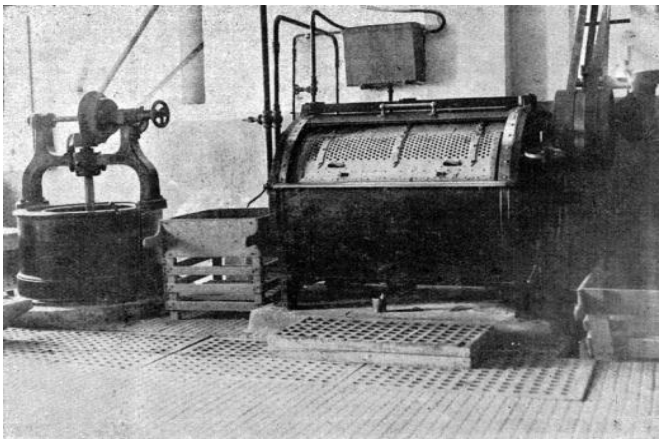

(صورة رقم ١٠)

(١) Gaston Zananiri, Tor., op. cit, p. 85-93

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

"وعند إشراف الدكتور إكس (x) على عمليات التطهير كان جرس ميزان الحرارة الكهربائي ما يزال يشتغل، حيث يشير إلى اللحظة التي تصل فيها الحرارة الدرجة المطلوبة في الفرن. وبدلًا من احتساب الوقت القانوني بداية من هذه اللحظة، يتم اعتبار إشارة الجرس إيذانا بنهاية عملية التطهير. وبهذه الطريقة كان يتم تطهير أمتعة حجاج السفن الأولى"(١).

أما فيما يخصنا، فعندما مررنا بالطور، لم أتمكن من مراقبة طريقة عمل الموظفين المكلفين بالتطهير. علينا أن نعترف بأن كل شيء تم بشكل جيد. لكن ما الفائدة من تطهير الحجاج وأمتعتهم إذا لم يتم تطهير داخل السفينة ذاتها، أو تطهيره كما يجب؟ فبعودة أولئك الحجاج إلى السفينة سيكونون عرضة لبذور العدوى التي خلّفوها هناك! والأدهى من ذلك، أن مرضى الجدري الذين احتُفظ بهم في المستشفى تم إركابهم على متن السفينة. وحينما اعترضتُ على ذلك احتُجّ علينا بأن الجدري ليس معديا كما هو حال الكوليرا والطاعون.

(1) Proust, Orientation nouvelle de la politique sanitaire

قاعة علاج الأمراض المعدية في مستشفى الطور[١]

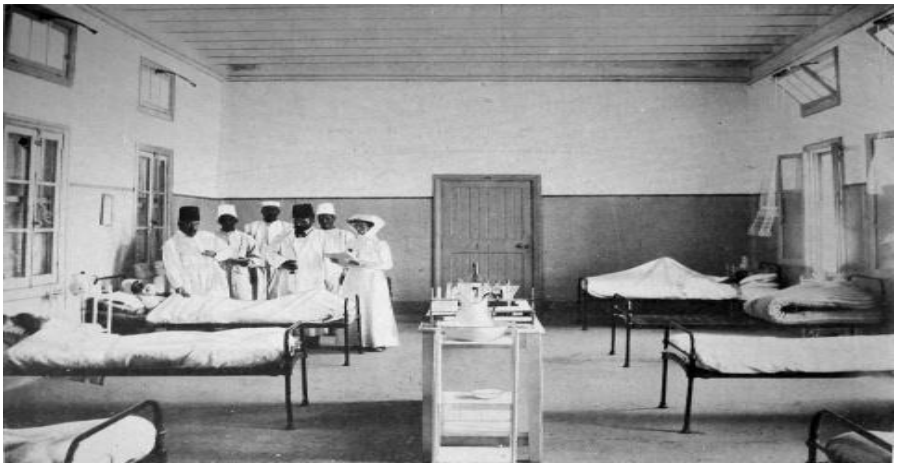

(صورة رقم ١١)

لقد كان من واجبي أمام هذا الإعلان الشفوي طلب تصريح مكتوب. لكن لم يكن باستطاعتي فعل ذلك، إذ لا تأثير ولا سلطة لي على متن السفينة. ولم يكن أمامي سوى الاستعداد لشرح الموقف وتعليل ما حصل عندما تطرح علي الأسئلة بعد الوصول إلى مرسيليا. سنعرض ذلك في التقرير الخاص بهذه الرحلة المشؤومة.

(1) René Briend, "Etablissements quarantenaires", Alexandrie, Société de publications égyptiennes, p. 60, s.d.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ما كان يجب فعله بالنسبة إلى المصابين الخمسة بداء الجدري في مرحلة التجفيف سهل للغاية، لكن كان من الصعب الحصول عليه. وبصعوبة شديدة تمكنت من إقناع قائد السفينة، الذي وضع رهن إشارتي زورقًا يمكن استعماله كمستشفى، وهو أحد قوارب النجاة [٢٤] الموجودة على ظهر السفينة. كان واسعًا ويمكنه استقبال ما يزيد عن عشرين مصابا. لم أستطع مع ذلك وضعه في المكان الذي أريد، أي الأكثر ملاءمة والآمن، قدر الإمكان، لمنع أي اتصال مع المرضى. كنت أفضّل أن يكون تحت جسر مؤخرة سطح السفينة. وبهذه الطريقة، ومن أية جهة هبت الريح، كنت أضمن عدم تناثر قطع القشرة الجلدية وإصابة الركاب وطاقم السفينة. لكن رغما عني، تمّ وضعه في ميسرة السفينة وإلى الخارج قدر الإمكان، وهذا الوضع الأخير لم يتم إلا بإشارة مني. قمت بتغطية المركب الذي هو عبارة عن المشفى، بسقف من خشب وتركت فتحة واحدة، وعملت كل ما في وسعي حتى لا تكون حراسة المرضى من طرف أحد بحارة السفينة، وكلّفتُ للقيام بهذه المهمة أحد الحجاج مقابل أجرة تُؤدّى إليه، وأعطيته أوامر صارمة بمنع اقتراب أي شخص من القارب، ويقوم هو بإيصال الغذاء والأدوية إلى المرضى عن طريق عصى

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في شكل رمح، ثم يزيل بعد ذلك السلم ويشدّه بقفل. وحتى لا أقع في التكرار سأعرض في التقرير النهائي بقية المعلومات عن الموضوع.

وكما رأينا، فإن مسألة السلامة العامة وإجراءات الوقاية كانت تعتبر ثانوية على متن هذه السفينة، لكن يمكنني القول إن أوامري ونصائحي كان معمولًا بها بعد ذلك وهو ما جعل النتائج ممتازة.

***

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الرابع:
حول عدوى الجدري

كانت غاية التصريح الشفهي لزميلي في الطور هي التقليل من خطورة عدوى الجدري وتسهيل قبول مرضى الجدري الذين سلمهم إلي، لكنني لم أفكر أبدأ أنه بمجرد الوصول إلى مرسيليا كان علي أن أتحمل تبعات ذلك التساهل الذي لم يكن هناك مفر منه. كان علي عند الوصول ولقاء رئيسي ألا أتورع في الكشف عن ذلك العمل الحقير من جانب طبيب أجنبي حاصل على الدرجة من الكلية الفرنسية.

إن الجدري، بدون توخي نشر الرعب بين الناس، مثله مثل الكوليرا من الأمراض المخيفة. فتاريخ هذه الحمى المتهيجة يعلمنا أن ضحاياها كانوا كثيرين، وبأنه لا ينبغي التعامل معها باللامبالاة.

صورة تجسد الإصابة بداء الجُدري(١)

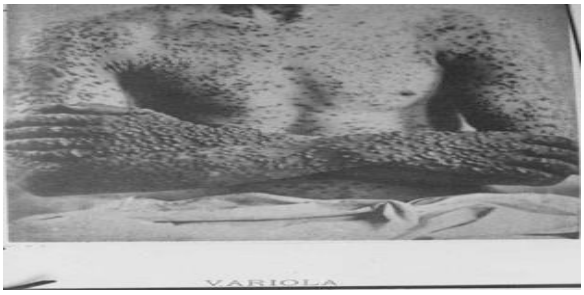

(صورة رقم ١٢)

(1) https://fr.wikipedia.org/wiki/Variole

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في مذكرة عن التاريخ القديم وتوطن الطاعون في المشرق، اعتبر الدكتور دارمبرغ Daremberg، أمين المكتبة في أكاديمية الطب، الجدري بمثابة البلاء الذي أصاب مصر على عهد موسى [عليه السلام] حوالي ٢٤٤٣ عام قبل الميلاد. [٢٦] يتعلق الأمر بطفح جلدي لا يقاس بالجدري حسب اعتقاد كروس Krause. وهو عبارة عن جروح صغيرة مع نفطة تقترب من تلك التي وصفها توسيديد[١] Thucydide عام ٤٣٠ قبل الميلاد. وبقبول هذا الرأي واعتباره الأكثر احتمالا، نرى أن الجدري حينما يسود بشكل وبائي، يتفشى بشكل رئيسي في الأماكن الأكثر اكتظاظًا بالسكان. ويبدو، من خلال تقرير المؤرخ الإغريقي، أن هذا المرض كان مستشريًا في الأكروبول[٢] Acropole أكثر منه في أي مكان آخر. وتوضح هذه النقطة كون سكان الأرياف كانوا يتجمعون في أكواخ غير صحية وعديمة التهوية إلى درجة الاختناق. وقد لاحظ توسيديد نفسه أن تلك الظروف تعزز توسع المرض وأنها أحد العوامل المساعدة والرهيبة لتلك الآفة.

(١) هو مؤرخ إغريقي من مدينة أثينا، عاش بين ٤٦٥ و٣٩٥ ق.م. وكتب تاريخها.

(٢) الأكربول acropolis أكروبوليس كلمة يونانية معناها المدينة العالية أو الحصن، كانت علما على كثير من القلاع الإغريقية. أشهرها أكروبول أثينا ولا تزال آثاره قائمة إلى اليوم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأضاف الدكتور دارمبرغ (ص. ٩) ما يلي: "أما نحن فنعتقد بأن طاعون أثينا هو عبارة عن جدري معقد بواسطة الغرغرينا في الأطراف والأجزاء التناسلية".

أما روفوس ديفيز Rufus d'Ephèse الطبيب المشهور في عهد الإمبراطور طراجان Trajan (١١٧) فذكر أن الطاعون ساد وبائيا قبل الميلاد في العديد من المناطق التي نراه فيها اليوم. وقد احتفظ لنا أورياس Oribase، وهو طبيب الإمبراطور يوليان Julien (٣٦٣) بهذا النص في مجموعاته الطبية. ويعد أوزانام Ozanam أول من نبه المجتمع العلمي، عام ١٨٣٣م في برنامج أكاديمي، إلى نص روفوس. صحيح إن تيوفيل Théophile وإتيان Etienne اللذين عاشا في الأيام الأولى للإمبراطورية المتأخرة[١] le Bas-Empire لمَّحوا إلى هذا النص وهما يعلقان على الحكمة رقم ٥٥ من القسم ٤ [٢٧] لأبقراط[٢] Hippocrate. لكن النص الإغريقي لتلك التعاليق لم يتمّ نشرها من طرف ديتز Dietz إلا في عام ١٨٣٥م، أما الترجمة اللاتينية فلم تكن منتشرة".

(١) تسمية الإمبراطورية المتأخرة تعني المرحلة الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية (٢٨٤-٤٩١م).

(٢) من أعظم أطباء بلاد اليونان عاش فيما بين ٤٦٠ و٣٧٠ ق.م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإحالة السابقة مقتبسة في الحاشية نفسها وتؤكد الرأي القائل بأن الحمى الوبائية معروفة منذ العصور القديمة.

فقد تحدث أوزانام، وهو طبيب سابق في مستشفى ديو -Hôtel Dieu في ليون Lyon، في مؤلفه "تاريخ الطب العام والخاص" عن بعض الأمراض الوبائية المعدية والحيوانية التي سادت في أوروبا منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر، قائلا: "الجدري عبارة عن مرض التيفوس، الإلتهابي، الوبائي والمعدي"(١).

وتحدث ماريوس Marius، أسقف أفرينش Avrenches في هيلفيتيا Helvétie في حولياته عام ٥٧٠م عن ظهور الجدري في بلاد الغال(٢) La Gaule وإيطاليا ومعه إسهال قوي. وأعقب ذلك ظهور الطاعون. فهو (أي الجدري) وبائي، يضيف أوزانام، حيث ينتشر بشكل واسع في البلاد. وهو معد حيث ينتقل بسهولة إلى الشخص الذي يسكن مع المصاب في الحجرة نفسها، أو يتعرض للروائح المرضية المحيطة

(١) والأصل أنّ مرض التيفوس غير الجدري.

(٢) بلاد الغال أو غالة هي التسمية التي أطلقها الرومان على فرنسا وبلجيكا والجزء الواقع غرب نهر الراين في ألمانيا، واشتهرت فرنسا خصوصا بهذا الاسم لدى الفاتحين المسلمين لجنوب غرب أوربا.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالمصاب بالجدري. وهو مُعدٍ إذ ينتقل بسهولة إلى الشخص المعافى من خلال تنقل الفيروس الموجود في الدُّمّل.

وفي سنة ٥٨٢م سحق الوباء الغاليين Les Gaules وأصاب غريغوار دو تور Grégoire de Tours وأرمونطوريوس Armentorius. وقد وصف الأول وباء الجدري الذي ميزه عن الطاعون.

كان علاج الجدري بدائيًّا، حيث ذكر غريغوار أنه وتلميذه كانا يداويان المصابين من خلال تدخل القديس مارتان Saint Martin[١].

أما الرازي، الطبيب العربي[٢] في القرن التاسع الميلادي، فقدم اعتمادًا على أعمال هارون Aaron عرضًا ممتازًا عن أعراض الجدري من دون الحديث عن العدوى. [٢٨]

(١) هذا دليل على وجود معتقدات منحرفة في وسط الطبقة المثقفة في المجتمعات الأوروبية وكانت توظفها خدمةً لمصالحها وتؤكد إصابة غريغوار بالوباء وعجز تلك المعتقدات عن مداواته.

(٢) أبو بكر الرازي، العالم والطبيب الفارسي، المعروف ب Razes، عاش فيما بين ٢٥٠ و٣١١هـ (٨٦٤-٩٢٣م)، وليس عربيا كما عرّفه لويس ليون طيراس، الذي يبدو أنه خلط بين هذا الأخير وفخر الدين الرازي العربي، المولود في الري عام ٥٤٣هـ والمتوفي عام ٦٠٦هـ، والذي اشتهر بعلم الكلام والمنطق والتفسير ولا علاقة له بالطب.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وفي القرن العاشر، أشار ابن سينا، الذي لم يكن لكتاباته قيمة تذكر[١]، إلى وجود عدوى للجدري.

وفي عام ١٥١٧م نقل الإسبان الجدري إلى هايتي، ثم إلى المكسيك عام ١٥١٨م.

كانت هذه الأوبئة تتحاشى -إلى حد ما- إصابة الأوروبيين بينما كان أكثر ضحاياها من السكان الأصليين.

وفي عام ١٥٧٣م، عرفت باريس وباء وصفه بايون Baillon بشكل جيد، والذي أصاب الأطفال بشكل خاص.

وفي القرن السابع عشر أعطى سيدنهام Sydenham، المعروف بمقدرته على الملاحظة، وصفًا واضحًا للمرض ودعا إلى استعمال مضاد للالتهاب.

(١) هذا الحكم في حق ابن سينا، وهو أحد القمم الإسلامية الشامخة في مجال الطب، لا ينقص من قيمته شيئا، إذ ما أنكره طيراس هو أن كتب ابن سينا ظلت مراجع أساسية ينهل منها الأوروبيون في كليات الطب إلى وقت قريب، وحكمه المتعصب يعكس حقًّا وحقيقة تشبعه بالفكر الصليبي المتطرف والمعادي للإسلام والمسلمين، وقد عُرف ابن سينا عند الغرب باسم Avicenne.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم جاء من بعد هؤلاء كل من بويرهاف Boerhaave (١٦٦٨-١٧٣٨م)، وفان سويتن Van Swieten (١٧٠٠-١٧٧٢م)، وسطول Stoll (١٧٤٢-١٧٨٨م)، وكولين Cullen (١٧١٢-١٧٧٩م)، الذين ساهموا بقوة في عمل سيدنهام. وفي عام ١٧٩٧م ظهرت مذكرة دوسيسارت Desessarts، ولا ينبغي أن ننسى مورتون ضمن هذه الكوكبة.

كان علم دراسة الأعراض قد تأسس بشكل جيد في هذا الوقت، لكن ينبغي الإشارة إلى أنه إلى حينه لا أحد فكر في القضية التي تشغلنا كما هو الحال اليوم: أي النظافة والوقاية.

أما غيوم جونكا فنصح باعتماد إجراءات عامة خلال وباء عام ١٧٥١م. كان الجدري حينها معروفا في كل مكان، ويكفي إلقاء نظرة على الجدول الذي استعرناه من بروست Proust، من خلال هيرش Hirsch، للتحقق من ترتيبها الزمني في مختلف البلاد:

فرنسا	٥٨٠
إنجلترا	القرن الثاني عشر
أيرلاندا	١٢٤١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ألمانيا	١٤٩٣
أمريكا	١٥٠٠
الدانمارك	١٥٢٧ [٢٩]
السويد	١٥٧٨
جرينلاند(١)	١٧٣٣
كامشاتكا(٢)	١٧٦٧

أحدث وباء الجدري خرابا عظيما في أوروبا، لدرجة أن مذكرات سان سيمون Saint-Simon، الذي أصيب بالوباء نفسه، مليئة بالقصص التي تُروى عن انشغال العقول بالموضوع. كل المحاولات العلاجية ظلت من دون نتائج، إلى حين مجيء امرأة، هي ليدي مونتاغ

(١) تعتبر جزيرة جرينلاند Groenland من أكبر جزر العالم وهي تقع بين منطقة القطب الشمالي والمحيط الأطلسي، شمال شرق كندا .وبالرغم من انتمائها طبيعيا وعرقيا إلى منطقة القطب الشمالي واعتبارها جزءا من قارة أميركا الشمالية، فإنها ترتبط تاريخيا وسياسيا بأوروبا، وخاصة بأيسلندا والنرويج والدانمارك.

(٢) تقع شبه جزيرة كامشاتكا Kamtchatka في أقصى شرق روسيا، وتقدر مساحتها الإجمالية بـ ٣٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

Lady Montague التي قدمت لمواطنيها ابتكارا جريئا، ويتعلق الأمر بالتلقيح ضد الجدري[١].

في الصين وفي بلاد فارس يتم تلقيح المصابين بلقاح لطيف التأثير، بحيث يمنع ظهور ندب مشوهة للوجه. هذه الطريقة سبق اعتمادها في السويد من طرف صامويل سكايجينستيرنا Samuel Skaygenstierna، طبيب الملك الخاص، وقد أدخلت هذه الطريقة إلى تركيا حوالي عام ١٦٧٣م، من قِبل إيمانويل تيموني Emmanuel Timoni، وهو من القسطنطينية[٢]، ومن قِبل جاك بيلاريني Jaques Pylarini قنصل البندقية في إزمير.

وقد أعطت ليدي مونتاغ المثال للإنجليز بتلقيح نفسها في أبريل ١٧٢١م. وانتشر بعد ذلك التلقيح ضد الجدري بشكل واسع وسريع، وأصبح معمولا به منذ زمن طويل في بلدة بيمبروك Pembroke .

(١) لقد تعرفت على هذه الممارسة خلال إقامتها في تركيا حيث كان زوجها سفيرًا هناك.

(٢) مرة أخرى تظهر عصبية المؤلف الذي عوض أن يُسمّي عاصمة الدولة العثمانية باستانبول، خلال التاريخ المشار إليه، فَضَّل ذكر القسطنطينية، تمجيدًا منه للفترة الرومانية من تاريخ هذه المدينة، وتجاهلًا منهم للدور العثماني، خاصة في مرحلة واجهت فيها الدولة العثمانية هجمة استعمارية شرسة، استهدفت اختراق مجالها والإجهاز على ما بقي منها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويخبرنا كيرك باتريك Kirk-Patrick أنه كان يتم وخز الجلد لتمرير كمية صغيرة من صديد الجدري.

هذه الطريقة، حسب شوينك Schwenk سبق اعتمادها في مقاطعة مورس Meurs وفي دوقية كليفز Clèves عام ١٧١٢م، وأيضًا في الدانمارك عام ١٦٧٣م (Bertholen)، وأيضًا في أقاليم فرنسا القديمة في كل من أوفيرني Auvergne وفي بيريغور Périgord.

وقد ذكر الدكتور جوليان ألفان في أطروحته التي نوقشت في مونبوليي عام ١٨٦٥م أن: "انتشار التلقيح في فرنسا تم ببطء شديد. ويبدو أنه أصبح معتمدًا منذ ١٧١٧م [٣٠] لدرجة أن بوايي Boyer ناقش أطروحته في موضوعه بكلية مونبوليي".

كان لهذه الطريقة في الوقاية مؤيدوها ومنتقدوها، وقد أدينت في نهاية المطاف في السربون عام ١٧٣٠م، في الخطاب الشهير الذي ألقاه دوغلاس Douglas.

لكننا نقرأ في "الدليل العملي لممارسة الطب الملكي والبرجوازي" لصاحبه بوكهوز Buc'Hoz، وهو الطبيب العادي لصاحب الجلالة ملك بولونيا، الأستاذ المساعد في كلية الطب الملكية في نانسي Nancy، وهو

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كتاب نشر عام ١٧٦١م ما يلي: "أن الجدري مرض طبيعي مشهور عالميا بأنه مرض خطير خصوصا بالنسبة إلى البالغين. لقد ذهلنا من هذه الفكرة الشائعة في كل الدول، من خلال التربية وفي الحياة اليومية، أن الأمثلة المتكررة للوفيات أصبحت مصدرا جديدا للخوف المسيطر على أذهان جميع أولئك الذين يتمتعون بالعقل والتمييز. قد يكون هناك العديد من الذين يموتون بمرض الجدري من تأثير الخوف. وإنه لمن السعادة اتخاذ الإجراءات اللازمة قبل إعلان الوباء للتخفيف من اندفاع الدم !

في الفترة الأولى، عند انتشار الوباء، لا يمكن ضمان عافية المواطنين الذين لم يصبهم الجدري، وإذا كانت الإصابة محتملة، فما هي الاحتياطات الواجب اتخاذها غالبا في مثل هذه الحالة ؟ مع بعض التبصر، يمكن إنقاذ العديد من الأشخاص الذين يموتون من جراء هذا المرض. إن التلقيح ضد الجدري لا يسبب أي إزعاج ولا يعرض لأية مخاطر".

مع تروسو وتلاميذه، [٣١] تبدأ المرحلة المعاصرة. أصبح الفحص السريري أساس العلاج، وعاد اللقاح إلى الواجهة بعدما ظل لبضع سنوات في الظل، فأصبح معتمدًا، وأدخلت الاكتشافات الأخيرة حول العدوى الموضوع في عهد جديد.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بـدأ الاهتمـام بجـد بالوقايـة والنظافـة. وإذا كـان البـاحثون خـلال القرنين الأخيرين ركزوا بالخصوص على التلقيح كإجراء وقائي، فاليوم مع اكتشاف جينير Jenner[1] الذي أصبح معروفا في كل مكان، لا يمكن إغفال دور عزل مرضى الجدري كإجراء فعال.

لماذا لا يمكن اعتماد العزل التام لمرضى الجدري كإجراء عملي على متن سفينة تفتقر لكل وسائل العلاج؟ كان عليّ في حالة ما إذا توسعت العدوى عزل قرابة ثمانين مريضًا في قوارب النجاة الموجودة في جنبات السفينة. وأكرر أنه بإمكان كل زورق حمل قرابة العشرين فردا، مع العلم أنه يوجد في السفينة أربعة زوارق فقط.

يتم عزل المريض خلال مدة المرض والنقاهة على حد سواء، ويتم تعقيم الملابس وكافة الغسيل بالماء الحار، كما يتم تطهير العمال المكلفين بعلاج المرضى بكل عناية وبمنتهى الصرامة. ويعتبر المصاب بالجدري معديا ما دام يحمل القشرة على جسمه.

(١) إدوارد جينير، طبيب بريطاني مولود في ١٧ مايو ١٧٤٩م، اكتشف لقاح الجدري . موسوعة وكيبيديا.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن التلقيح هو العلاج الوقائي وتطعيم الناس قبل انتشار الوباء هو الوسيلة الفعالة لمواجهته"(١).

يعتبر الجدري وباءً معديًا، وهنا وكما هو الحال دائمًا، قد تكون العدوى مباشرة أو غير مباشرة. فعوامل العدوى هي الدم، حسب فورنيي Fournier، والصديد والقشرة التي عند تفتتها تعلق في الملابس والغرف والسيارات وتحفظ إلى أجل غير مسمى [٣٢]، ولكونها خفيفة ومتحركة يمكن أن تتنقل لمسافة كبيرة وبإمكانها أن تصادف جسمًا قابلًا للتلقي.

"إن وسائل الوقاية لا يمكن أن تعتمد بدقة متناهية، وينبغي عزل المصابين بداء الجدري عزلة حقيقية لا شكلية. يجب تطعيم كل العاملين في قسم الجدري في المستشفيات، وتخصيص أحواض لاستحمام المصابين. ويجب علينا ألّا ننسى أن قشرة الإصابة تعتبر عاملًا فعالًا في العدوى، وبأن يظل المرضى معزولين إلى حين السقوط النهائي للقشرة"(٢).

(1) Traité de médecine, Charlot et Bouchard, livre II.

(2) Dieulafoy, Pathologie interne, t. II, Fièvres éruptives, 3ème édition.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن تقرير فيدال Vidal الذي سأعرض أهم أفكاره الرئيسية يلخص بوضوح كل التدابير الخاصة بمكافحة انتشار الوباء والقضاء على أسبابه، وهذه الإجراءات هي:

١) الإبلاغ الإلزامي والمؤكد عن مصدر الجدري.

٢) عزلة صارمة للمصابين بالجدري، أولًا في المستشفيات [٣٣]، يتم تكليف موظفين خاصين للسهر على علاجهم، ولا يمكنهم تلقي زيارات، وحيث تكون إجراءات التطهير مشددة. والأفضل إنشاء مستشفيات خاصة بعيدة بعض الشيء عن المدن. ومع ذلك يجب أن نعترف بأن العزلة داخل المستشفى، في بنايات خاصة، يمكن أن تكون كافية، شريطة أن يتم إعادة تطعيم كل من موظفي هذا المستشفى والمرضى والعمال. ومن الضروري أن يتوفر المستشفى، أو على الأقل المصحة الخاصة بمرضى الجدري، على مجموعة من غرف المراقبة لاستقبال المرضى الذين سيخضعون لتشخيص تحيط به بعض الشكوك.

أما بالنسبة إلى عزل المرضى الذين يُعالجون في البيوت، فينبغي أن يتمّ ذلك بالشكل المطلوب. يجب أن يكون سكان البيت والحي على دراية بالأمر بواسطة علامة خاصة تشير إلى البيت الذي يوجد فيه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المصاب[١]، إلخ...ويجب اتخاذ احتياطات تجاه أولئك الذين يعالجون المرضى، بحيث يفرض عليهم الحجر الصحي قدر الإمكان. ويتم تطهير البيت والفراش وكل الأشياء المستعملة بأكبر قدر من العناية. وأخيرًا لا يمكن للمُتعافي من المرض مغادرة البيت إلا بإذن مكتوب من السلطة الصحية. أما في المدن حيث توجد مؤسّسة لعزل المرضى، فأحسن طريقة آمنة هي نقل المرضى، كما هو معمول به في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وألمانيا. ويمكن تخصيص غرف بمقابل للمصابين بالجدري من الأغنياء، إلخ.

تلك هي الوسائل المعتمدة في الوقاية من داء الجدري، والتي أثبتتها التجربة عند الأمم الأجنبية، وثبتت فعاليتها. وقد نحت فرنسا هذا المنحى؛ لكن الإجراءات المتخذة حتى الآن (١٨٨٥م) غير كافية [٣٤]، لكن، هناك أخيرًا أمل في أن يُسمع صوت الأطباء، ويتم اعتماد اللوائح اللازمة، ليس لمنع انتشار الجدري فقط، ولكن أيضًا الأمراض المعدية الأخرى التي تتطلب الاحتياطات نفسها[٢].

(١) سياسة التعامل مع المرضى الذين يُعالجون في البيوت مبالغ فيها، وخاصة وضع علامة تشير إلى بيت المصاب، فهذا فيه تشهير ولا يتفق مع ما ورد في قَسَمِ ممارسة مهنة الطب، المشار إليه في نهاية الرسالة، الذي يحفظ كرامة المريض ولا يُشَهِّر به، فكيف يُشهَّر بمكان سكناه ؟

(2) Rapport Vidal, Nouveau Dictionnaire de Médecine et de Chirurgie pratique, XXXVII.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومنذ ذلك الوقت أصبح صوت الأطباء مسموعًا، والتطعيم ضد الجدري صار مفروضًا في المراكز الكبرى. أما في البوادي فكل طبيب له ضمير لا ينتظر أن تُذَكرَه السلطة المختصة بواجبه. وحتى الآن لا يزال الأطباء الممارسون يحافظون على تفانيهم في العمل، والمستقبل يشير إلى أنهم لن يفشلوا في ذلك.

إن الأماكن الخاصة والمعزولة تشهد تطوراً وازدهاراً، ويتم تصنيفها من خلال عبارة: "مُعدي" أو "مصلحة الأمراض المعدية" أو "إلى المعديات"، تلك هي الكلمات المستعملة في مرسيليا حيث مستشفى "الكونسيبسيون" La Conception؛ وفي مونبوليي حيث مستشفى "الضاحية" Suburbain.

ومع ذلك، لا يمكننا أن نتجاهل رأي الدكتور كلوت باي Clot-Bey، رئيس مصلحة الصحة في مصر، منذ أكثر من ثلاثين عاما، الذي اعترف في مراجعة نقدية لمذكرة الدكتور فوساتي Fossati حول "العدوى"، أن السيطرة على الأمراض الوبائية أصبحت متقدمة جدًّا عن معرفة أسبابها الأصلية. وأثبت كمبدأ أنه في الأمراض المعدية في الغالب، أن أولئك الذين يتعرضون للعدوى دون أن يكون لهم اتصال بالمرضى، هم الاستثناء. بينما في حالة الأمراض الوبائية فالعدد الأكبر من الناس هم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مَن لا يتعرّضون للإصابة. هذه الأمراض التي تعود لأسباب عامة، ينبغي عدم الخلط بينها وبين الأمراض المتوطّنة، التي تكون بسبب الظروف [٣٥] المحلية !- "الأوبئة التي يسميها أبقراط، حكيم كوس Cos الخالد، الأمراض الإلهية، لأنه لا يستطيع تحديد الأسباب، التي تُعزى في أيامنا هذه إلى ظروف الطقس، وزيّناها بجهلنا تحت اسم بنية مرضية"(١). [٣٦]

***

(١) أحال المؤلف على الدكتور كلوت باي بذكر اسمه فقط، ودون الإشارة إلى المرجع الذي استقى منه الاستشهاد.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الخامس:
مغادرة الطور؛ المرور عبر قناة السويس؛
نزول ٤٠٠ حاج بطرابلس الغرب أمام مليلية؛
إنزال الحجاج في موغادور؛
في الطريق إلى مرسيليا؛ الوصول إلى مرسيليا

بعد قضاء ثمانية أيام في الحجر الصحي سُمح لنا بمغادرة الطور، لكن في هذه المرة لم يتكرر مشهد الفوضى الذي صاحب عملية الإركاب في ينبع، لعدم الاكتراث الذي خامر الحجاج، وأيضًا يجب الاعتراف بذلك، بسبب الطريقة التي اعتمدت في نقلهم على متن القوارب انطلاقًا من المحجر.

انطلقت سفينتنا "جرغوفيا" في اتجاه السويس، وسُمح لنا هذه المرة بالمرور فورًا، ورافقنا بعض عمال الصحة وأحد مرشدي السفن. ثم إننا استُقبلنا بعد ذلك عند مدخل القناة بهجمة من الصفير رد عليها الحجاج بصراخ أقوى.

كان علينا انتظار ذلك الهجوم، إذ أن لون السفينة الخارجي كان مختفيًا تمامًا تحت طبقة سميكة من المواد البُرازية المجففة[1]، كما أن

(١) يبدو أن المكان كان مصبّا للصرف الصحي لمدينة السويس في ذلك الوقت.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كابلات وسلالم الصاري كانت هي الأخرى مغطاة بخرق قذرة مثيرة للاشمئزاز. هذا المظهر القذر لم يكن ليجذب أي تعاطف معنا.

قطعنا القناة بأقصى سرعة مسموح بها قانونًا للسفن، وكان علينا الخروج من القناة قبل أن يُسمَح لسفن أخرى بالعبور. [٣٧]

كُنّا وَعَدنا الحجاج، حين ارتكاب الميكانيكي خطأ توزيع مياه مالحة، بالتزوُّد بمياه عيون عذبة عند أول محطة وقوف، وقد ذُكِّرنا عدة مرات بذلك وكان علينا الوفاء به. وبالفعل تم تزويدنا بتلك المياه عند إنزال جزء من الحجاج بميناء طرابلس. وبعد انتهاء الإجراءات القانونية بين اللّجنة المكلّفة بالصّحة في طرابلس وسفينة "جرغوفيا"، سَلَّمتُهُم البيان التالي:

"إلى السيّد مدير الصحة في طرابلس. يتشرف طبيب الصحة على متن السفينة البخارية "جرغوفيا"، بإعلامكم أنه من بين الحجاج الذين نزلوا في طرابلس، هناك ثلاثة مصابين بداء الجدري؛ وبأنه منذ إركاب هؤلاء المصابين في ينبع، وخلال الرحلة، ظلوا معزولين تمامًا عن باقي الركاب، وأنهم كانوا خاضعين لرقابة أحد الحراس العرب(١). ونشهد أنه باستثناء

(١) يشير إلى الحارس بأنه عربي، وكان الأجدر به القول إنه مسلم أو إنه أحد الحجاج المسلمين.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حالات الجدري المذكورة لم نَلحَظ وجود أية إصابة بأمراض أخرى وبائية كانت أو مُعدية.

ويُصرّح إضافة لما سبق، بحدوث ثلاث وفيات، اثنان منهما بسبب التهاب مزمن في الأمعاء، والآخر بسبب تقرُّح في السّاق اليمنى.

ويضيف، في الأخير، أن طاقم السفينة بصحة جيدة، وبأن الحالة الصحية للحجاج المتوجهين إلى موغادور مرضية جدًّا.

وتقبلوا ـ، إلخ.

من على متن السفينة "جرغوفيا"، ميناء طرابلس، يوليو ١٨٩٦م".

عملية إنزال الحجاج في هذه الوجهة تمت بسلام وبدون وقوع أية حوادث تذكر. وبمجرد نزول الحجاج الأربعمائة في ميناء طرابلس، تم اقتيادهم إلى مستشفى الأمراض المعدية حيث سيقضون، على ما يبدو، حجرًا صحّيًّا لمدة ثمانية أيام. أما المصابون من بينهم فكانوا آخر من غادر السفينة على متن قارب مخصّص لهذه الخدمة. [٣٨]

كان ممنوعًا علينا منعًا باتًّا القيام بأي شيء، باستثناء تزويد السفينة بما يلزم من إمدادات الغذاء الطازج والمياه. كانت المياه ممتازة ومنقطعة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النظير بشهادة العرب[١]. وحتى في هذه الحالة، تطلب الأمر وجود لجنة مكونة من تُرجمان الحجيج ومن شيخي قبيلتين وشخصين آخرين وقائد السفينة وأنا.

لاحظ الجميع أن مياه طرابلس لا نظير لها من حيث النّقاء والمذاق، وحينها أعطيت الأوامر بشحنها. لقد تم تعبئتها في براميل صغيرة نظافتها غير مرضية، لكن هذا لا يطرح أي مشكل ما دام مصدر المياه من بلد ومن قوم يعتنقون الدين نفسه، وهذا فيه الكفاية.

انطلقنا مباشرة بعد ذلك في اتجاه موغادور (الصويرة)؛ وعند وصول الباخرة قُبالة ساحل مليلية، المحتلة من قِبل الإسبان، كان الشريف الأكبر[٢]، وهو المسؤول الأعلى عن قافلة حجاج البحر[٣]،

(١) أي بشهادة الحجاج أنفسهم.

(٢) لم يذكر طيراس اسم هذا الشريف الأكبر.

(٣) جرت عادة سلاطين المغرب أن يختاروا أميرا لركب الحاج المغربي المتوجه إلى البقاع المقدسة، يُختار من بين "علية الناس فضلا وأخلاقا وثروة وعراقة بيت". المنوني، **من حديث ركب الحج**، ص ٣٠. ويبدو أن وصف طيراس للشريف ب "المسؤول الأعلى عن قافلة حجاج البحر"، أن دوره كان شرفيا، إلى جانب المسؤولية المباشرة لأمير الركب، الذي كان يُختار من بين العلماء ذوي المكانة في المجتمع والوجاهة لدى السلطان. ومع ذلك فرغبة الشريف في النزول قبل نهاية المسير كانت خطأ فادحا وإخلالا بمسؤوليته العليا عن القافلة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حريصًا على مغادرة السفينة في أقرب فرصة، ربما لانزعاجه من ظروف السفر وإحساسه بالضيق[١]، وقد طلب من قائد السفينة إنزاله في هذا المكان ظنّا منه أن الصداقة التي تربطه بالجنرال الإسباني[٢] الذي يحكم مليلية ستشفع له بتحقيق رغبته في النزول هناك ! المسكين.....! يجهل بأن إسبانيا هي الدولة الوحيدة على مستوى العالم المعروفة بصرامتها تجاه مسألة الحجر الصحي وتَشدُّد شرطتها الصحية ! وعند اقتراب قارب المراقبة الصحية من سفينتنا استَفسَرَنا مَن فيه عن طريق مضخّم الصوت عن حاجتنا وماذا نريد ؟ فأخبرناهم عن رغبة الشريف في النزول، وكان الجواب هو الرفض البات. لم يُرفَض الطّلب السّخيف للأمير العربي[٣] فحسب، بل تمّ تهديدنا بأنه في حالة ما لم نغادر خلال عشرة دقائق سيتم قذفنا بالمدفعية !

(١) نعتقد أن رغبة الشريف الاكبر في النزول بمليلة ليست بالضرورة إنزعاجه من ظروف السفر وضيقه، كما ذهب إلى ذلك طيراس، لكنها قد تكون لدواع أخرى لا نعرفها، وقد يكون السبب بسيطًا هو أنه من خدام الدولة في المنطقة الشمالية، وهو ما تؤكده صداقته لحاكم مليلة المحتلة..

(٢) لم يشر طيراس إلى اسم الجنرال الإسباني.

(٣) أي المغربي.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كان الجواب شديد اللّهجة وكان علينا الموافقة بلا تردّد، وانطلقنا بسرعة في اتجاه موغادور. [٣٩]

أخيرا وصلنا إلى وجهتنا يوم ٢١ يوليو ١٨٩٦م، حوالي الساعة العاشرة صباحا، حيث رست سفينتنا قبالة ساحل موغادور، التي يُطلق عليها الأفارقة(١) الصويرة، وهي مدينة مغربية بحرية محصنة تقع على المحيط الأطلسي، مظهرها خلاب وحولها أرض جرداء، ويليها تلال ذات خضرة داكنة، وتظهر في المدى البعيد القمم الثلجية لجبال الأطلس(٢). الجو صحي ونادرا ما تهطل الأمطار، وعمق مياه الميناء لا تتجاوز ثلاثة أمتار عند الجزر وهو ما يفرض على البواخر الوقوف على مسافة كيلومترين. قبالة المدينة توجد الجزيرة(٣) التي يبلغ طولها ميلًا ونصفـًا وتبعد حوالي ميل ونصف من الساحل، وهي محمية ببعض الحصون، ويوجد فيها مسجد تتألق مئذنته تحت أشعة الشمس، كما يوجد فيها مستشفى للأمراض المعدية.

(١) يقصد بذلك المغاربة، نسبة إلى القارة التي يوجد المغرب في شمالها الغربي.

(٢) المقصود هو جبال الأطلس الأكبر.

(٣) وهي مشهورة باسم جزيرة الصويرة أو محجر الصويرة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محجر جزيرة الصويرة[1]

(صورة رقم ١٣)

على الرّغم من قلّة الأمطار، فإن المياه وفيرة، لكننا لم نَلحَظ إن كانت تُعبَّأ في براميل وتشحن بواسطة السفن. أما البيض والدجاج والأسماك والطرائد وباقي المؤن فمتوفرة وبأسعار رخيصة.

بعد وقوفنا بقليل وصل المدير المكلف بالصحة، وهو طبيب عسكري إسباني، إلى ظهر السفينة وطلب مباشرة عملية إنزال الحجاج. وسلّمته حينها البيان التالي:

(1) https://www.google.com/Lazaret d'essaouira.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

"السيد مدير الصحة في موغادور

أنا الموقع أسفله، طبيب الصحة على متن السفينة البخارية الفرنسية "جرغوفيا"، أتشرّف بإبلاغكم أنه من بين الحجاج الذين ركبوا من ينبع، هناك أربعة مصابين بداء الجدري، عند انطلاقنا بتاريخ ٢٠ يونيو، وهم [٤٠] الآن في تحسن؛ وقد ظلّوا معزولين تماما عن باقي الركاب طوال الرحلة، وكانوا خاضعين لرقابة أحد الحرّاس العرب(١). ونشهد أنه باستثناء حالات الجدري المذكورة، لم نلحظ وجود أية إصابة بأمراض وبائية أو معدية أخرى.

ويُصرّح: بالإضافة لما سبق، أن صحة أفراد طاقم السفينة جيّدة، وبأن الحالة الصحية للحجاج مُرضية.

وتقبلوا ـ، إلخ.".

لولا الريح الشّمالية الغربية التي كانت تهبّ في تلك الفترة، وتؤثر في اتجاه سير قوارب المحجر الصحي الكبيرة، لتمّت عملية إنزال الحجاج بسرعة. وللتذكير فإن الواحد من تلك القوارب ذات الشكل الخشن كان بإمكانه شحن أزيد من مائة شخص. ومرة أخرى تجدد العراك بين

(١) أي أحد الحجاج المغاربة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحجاج وبحدة تزيد عما حدث عند الانطلاق من ينبع. يركب بعض المسافرين البعض الآخر من أجل رمي الأمتعة من على ظهر السفينة إلى القوارب الكبيرة. أما النساء والأطفال والشيوخ فكانوا يُداسون بالأقدام؛ وحتى البحارة الذين يركبون تلك القوارب البدائية كانوا يخشون وقوع الصناديق الثقيلة على رؤوسهم فتهشّمها. وفي ظل الفوضى العارمة، ابتعدت القوارب عن السفينة، وتم الاستنجاد بالقوة العسكرية، حيث وصل الجنود المغاربة في أعداد قليلة، لكنهم لم ينجحوا في فرض احترامهم. كان أولئك الجنود المشاة حُفاة الأقدام ومسلّحين ببنادق عتيقة وصدئة من موديلات عديدة، عديمة الجدوى وغير صالحة للاستخدام. قام الحجاج بدفعهم بعنف بلغ حدّ الضّرب، ووصل الارتباك إلى أقصى الحدود.

أخيرا، وبعد ساعات طويلة، لم يكن أمامنا إلا الاستعانة بحكمة شيوخ القبائل، خاصة الأذكياء من بينهم، الذين نجحوا بعد جُهد جهيد في تهدئة الحشود المستعصية. وما أن حلّ المساء حتى تم إنزال بضع مئات من ذوي الاستعجال والفوضويّين. [٤١]

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نزول الحجاج في ميناء الصويرة "موغادور" (١)

(صورة رقم ١٤)

لكن عملية إنزال الحجاج لم تنتهِ إلا ليلة اليوم التالي، وحينها تم توديعنا بكيل الشتائم لنا وتوجيه حركات التهديد إلينا (٢).

(1) https://www.google.com/Lazaret d'essaouira.

(٢) إن صح ما قاله الطبيب الفرنسي، يمكن تفسيره بأمرين: إما أنه رد فعل لما يمكن اعتباره سوء معاملة أو إهانة صدرت من بعض أفراد طاقم السفينة خلال الرحلة، ومع ذلك فإن مثل هذا السلوك لا ينبغي لمسلم، كان الحج مناسبة لطهارته من الذنوب، وبالتالي فمثل هذا التصرف مرفوض دينا وعقلا؛ أو أنه صادر من أناس غير متعلمين، إن لم نقل جاهلين، ولا اطلاع لهم بأخلاق الإسلام وسماحته.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ما أن غادر آخر حاج سفينة "جرغوفيا"، حتى انطلقت هذه الأخيرة تشقّ عُباب البحر في اتجاه مرسيليا. كانت مدّة الرحلة إلى مرسيليا، وهي خمسة أيام، مناسبةً لتنظيف وتطهير السفينة بمواد النظافة والتطهير المفروضة قانونيا على أرباب شركات الملاحة البحرية، بحيث نجح البحارة في تغيير ما آل إليه حال السفينة في الخارج والداخل. تم إفراغ وغسل الحُجرات التي شغلها الأغنياء والشيوخ، ثم تدمير المراحيض والتخلص منها بإلقائها في البحر. واستُعمل في بداية التنظيف قوة الماء والحك بالرمل والكشط بالأدوات الحادة، وللتطهير استعمل طلاء الجير، ثم في الأخير محلول حمض الكربوليك وفقا للمتطلبات التنظيمية.

وفي يوم ٢٧ يوليو، على الساعة الثالثة بعد الزوال، كنا على مشارف مرسيليا، وعلى استعداد لاستقبال اللّجنة الصحية. وهذا نص التصريح الذي رفعته إلى مدير الصحة في مرسيليا.

"سيدي المدير

يتشرف الموقّع أسفله، طبيب الصحة في باخرة "جرغوفيا"، بإبلاغكم أن السفينة المذكورة عادت من رحلتها إلى ينبع حيث حملت الحجاج العائدين من مكة؛ وبأنه من بين ألفي مسافر تم إركابهم كان هناك

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

سبعة مصابين بداء الجدري لم نُبلّغ عنهم؛ وأنه بمجرد اكتشاف أولئك المرضى عمدنا إلى عزلهم طوال الرحلة في مركب وتحت حراسة أحد الأهالي؛ وتم إنزال ثلاثة من المصابين بالجدري في طرابلس، والأربعة الآخرون [٤٢] الذين كانوا يتماثلون للشفاء نزلوا في موغادور، وقد أخبرنا بذلك المصالح الصحية في مستشفى الأمراض المعدية في الموقعين.

ويُصرّح أيضًا أنه لم يلحظ أية حالات أخرى لأمراض وبائية أو معدية، وأنه بحضوره تم تنظيف المركب، الذي خُصّص مشفىً للمصابين بالجدري، بالماء والمطهرات.

وأضاف أن طاقم البحّارة يتمتع بصحة جيّدة ويتقدّم إليكم بأسمى عبارات التقدير، إلخ.

كُتب على متن "جرغوفيا"، في ميناء مرسيليا بتاريخ ٢٧ يوليو ١٨٩٦م".

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومباشرةً بعد وصولنا مُنحنا حرية الحركة[١]، وقام الطبيب المكلف بمصلحة الصحة بمرافقتنا لتفقد مدى نظافة السفينة وبأن عملية التطهير تمت بطريقة مرضية، حيث أبدى رضاه وصرّح بأن كل شيء على ما يرام.

***

(١) أي لم يتم إخضاعنا لحجر صحي.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل السادس:
نتائج السفر والتقرير المرفوع إلى وزير الداخلية

بعد فترة من وصولي إلى مرسيليا، استدعاني السيد مدير الصحة في الميناء التجاري ليخبرني أن هناك رسالة من وزير الداخلية في موضوع شكوى رَفَعتها ضدّي إدارة الصحة في الإسكندرية.

تم اتّهامي بتقديم تصريح كاذب ! وطَلَب منّي السيد الدكتور س..قراءة البند العاشر من الباب الثاني المتعلّق بقانون الشُّرطة الصحية، بتاريخ ٣ مارس ١٨٢٢م. وكان جوابي أنني رَفَعتُ في نفس اليوم تقريرًا إلى السيد وزير الداخلية جاء فيه:

"مرسيليا، في سبتمبر ١٨٩٦م.

سيدي وزير الداخلية

يشرّفني إبلاغكم أن مدير الصحة في مرسيليا استدعاني إلى مكتبه في موضوع مسألة غريبة لم تكن في الحسبان !

لقد بلّغني عن شكوى صادرة من المجلس الصحي في الإسكندرية في موضوع المصابين بداء الجدري الذين تم إركابهم على متن سفينة "جرغوفيا" دون علمنا.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أنا مندهش جدّا أن دولة أجنبية أجبرت سفينة فرنسية على حمل أكثر مما هو مسموح به من الركاب [٤٤] ترفع شكوى ضد طبيب السفينة أنه قدّم تصريحًا كاذبًا!

إن حاكم ينبع، ومدير الصحة في هذه المدينة، وهذا الأخير بالخصوص، كان عليه فحص كل الحجاج والقيام بواجبه: لم يكن إذن بوسع الطفلتين الصغيرتين والثلاثة البالغين أن يكونوا بيننا ! كانوا يعلمون بالتجربة، أن الازدحام سيكون على أشُدّه وقت الصعود إلى السفينة، وبأن أية مراقبة صحية ستكون مستحيلة.

وقبل المغادرة صعد طبيب ينبع على متن السفينة، وبدون أن يكلّف نفسه عناء الاتصال بي، اكتفى بالتشاور مع قائد السفينة. كان على ما يبدو مستعجلًا جدًّا لتخليص بلاده من أعداد الحجاج المتخلّفين القادمين من كل حدب وصوب، ولم يكن يعبأ بتحميل السفينة الفرنسية بأكثر من طاقتها الطبيعية.

كانت حمولة الباخرة جرغوفيا تقدر ب ٢٠٣٣ برميل ويمكن أن يتراوح عدد الركاب -حسب قول قائدها اعتمادا على تقدير اللجنة التي زارتها قبل المغادرة- من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ حاج، وقد تم حمل ٢٠٠٠

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شخص! ولو لم نبادر بالانطلاق لكان لزامًا علينا إركاب ٣٠٠ من البؤساء الذين انقطعت بهم الأسباب.

لقد تمّ تهديدنا في لحظة ما بعدم منحنا الترخيص بالمغادرة إن لم نحمل أولئك المعوزين الثلاثمائة بدون مقابل.

أما عملية الإركاب فتمّت في ظروف يُرثى لها ! كان الصعود بمثابة غزو حقيقي للسفينة. كانت القوارب المملوءة عن آخرها بالناس، في أوضاع غير إنسانية، تحيط بالسفينة من كل جانب، يصيحون ويتدافعون ويتسلّقون من كل جانب، وكانت السّلالم تحمل أكثر من طاقتها بحيث لا تسمح بالحركة. الجميع يريدون الصعود مرة واحدة. [٤٥]

لا شك في أن أية مصلحة ستكون مشلولة وتتوقف عن الحركة في خضم تلك الفوضى العارمة ! وقد دامت عملية ترتيب الأمور وتثبيت ذلك القطيع من البشر(١) في أماكنه أكثر من يومين ! كما أنه لم يكن سهلا إقناع أولئك المتعصبين بالتخلص من الأمتعة المعيقة التي يحملونها.

(١) هذا وصف ممجوج وغير مقبول ولا يليق بطبيب، كان عليه استعمال عبارات إنسانية في وصفه لذلك العدد الكبير من الحجاج، الذين تم حشدهم في سفينة كان المفروض أن تحمل عددًا أقل، بحيث يُتجنّب ما وقع من اكتظاظ يُعتبرهو السبب فيما حصل من صعوبات =

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هل كان بالإمكان إذًا في مثل هذه الظروف القيام بواجبي أحسن قيام، والكشف عن وجود مصابين بالجدري كانوا يتوارون عن ناظريّ خشية أن أراهم ؟

إن العربي الذي يعرف تمامًا أن داء الجدري قد يتسبب في حجر صحي للسفينة، لن يدّخر جُهدًا في إخفاء من هم مصابون بهذا الداء من ذويه. أريد أن أعرف من هو هذا الطبيب، ثاقب الذّهن، القادر على اكتشاف مؤشّر ما لبداية وباء ما دام قد تسلّم شهادة صحية يومين قبل ذلك!

لم يتم الإبلاغ عن وجود حالات إصابة بالجدري إلا عند وصولنا إلى الطور، حيث فُرض علينا حجر صحي لمدة ثمانية أيام. وهُنا في هذه المصحة العالمية، باشر طبيب مستشفى الأمراض المعدية فحص كل حاج على حدة، وهو ما لم يمنع من اكتشافي، في اليوم الموالي لمغادرتنا هذا الميناء، حالتين للإصابة بالجدري وهما في مرحلة متقدمة من

=

ومشاكل على متن السفينة. ولعل تكرار الأوصاف غير الإنسانية وغير اللائقة التي تلفّظ بها هذا الطبيب ضد الحجاج "الشعب المتعصب"، "الشعب المتوحش"، القطيع" إلخ.كل ذلك يعكس جانبا من شخصيته العنصرية المعادية للإسلام والمسلمين.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المرض! وما دام المجلس الصحي في السويس قد قرّر توجيهنا إلى الطور من أجل التطهير مما علق بنا في ينبع من أمراض معدية، فماذا بقي للمجلس الصحي بالإسكندرية قوله ؟

كان عليه إعطاء الأوامر لعمّال الصحة بتطهير السفينة، وهو ما لم يحدث، كما كان عليه فرض الاحتفاظ بالمصابين بالجدري في المستشفى إلى حين التّعافي من المرض. وبالرغم من احتجاجنا القوي، تمّ تسليمهم إلينا بدعوى أن الكوليرا هي الوباء المعدي [٤٦] الذي يمكن أن تكون له مضاعفات، ويمكن أن يُثير مشاكل وحرجًا دبلوماسيًا، بذريعة أن الطبيب كان في عطلة وأن المستشفى لا يتوفّر على أدوية.

لقد بلغ بهم الاستخفاف بنا أنهم حاولوا فرض إركاب سيدتين مصابتين بالجدري تركتهما سفينة مصرية، أو بالأحرى رفضت نقلهما بين ركابها. هذا صحيح بالنسبة إليهم، عند شعوب من نفس العرق، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلينا.

بعد إركاب الحجاج في الطور، استعطفتُ قائد السفينة أن يسمح لي باختيار مكان مناسب لعزل المرضى. والزورق المعين كان كبيرًا بما فيه الكفاية ومحكم الغلق مع وجود فتحة واحدة في السطح. أما الحارس

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فكان عربيًّا يُدفع له أجر على هذه المهمة، وقد أعطي أمرًا بأن لا يسمح لأي أحد، وتحت أية ذريعة، بالاقتراب من المكان. وكان على هذا المكلّف استعمال سلم لنقل الغذاء والدواء الموصوف لإخوانه في الدين، وبعد ذلك يزيل السلم ويغلقه بقفل.

وقد مَنعتُ منعًا كليًّا على أفراد طاقم السفينة حراسة المرضى، وأخبرت قائد السفينة بذلك، وبأنني لست مسؤولًا عما قد يقع إن حدث أي تجاوز، ولم يتم الاستماع لنصائحي أو الوقوف عند أوامري.

لقد أعلنت أنني وقفت على حالتين جديدتين لمصابين بالجدري بالإضافة إلى الحالات السابقة. وفي اليوم الموالي لمغادرتنا، وأثناء قيامي بالجولة الصباحية لمحتُ حالة جديدة عند أحد البالغين، وأُخرى لرضيع عمره عشرة أشهر، كانت أمه قد غطّته بعناية حتى لا أتمكن من رؤيته. كان المجاورون لها على علم بالإصابة، لكنهم كانوا حذرين جدًّا بحيث لا أُبلّغ بالأمر. والأسوأ من ذلك أن الأب حاول [٤٧] إرشائي بالمال لأجل السماح ببقاء زوجته وطفله إلى جنبه طوال مدّة العبور.

هذه سيدي الوزير هي الإجراءات الوقائية التي اعتمدت، وأنا فخور بأن أقول ذلك عاليًا، أنني أشعر بالرضى وبراحة بال تامة لكوني نجحت

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في التصدي لوباء الجدري الذي كان يُهدّدنا، فباستثناء حالات الإصابة المشار إليها، لم نلحظ أثناء الرحلة أية حالة جديدة بين ٢٠٠٠ من المسافرين مُكدّسين على بعضهم البعض!

لهذا السبب سيّدي الوزير، وبعيدًا عن أي لوم بأنني لم أقم بواجبي، كما وَجّه إلي ذلك السيد مدير الصحة في مرسيليا بعبارات قوية إلى حدّ ما، اسمحوا لي أن أشرح دون قصد، إنني أعلن دون خوف أنني قُمت بواجبي كاملًا وبراحة ضمير، وأنني لم أتردّد في إبلاغ صوتي عاليًا، في تقاريري اليومية إلى وكيل شركة الملاحة، بكل ما يُمليه عليّ واجبي كطبيب في مثل هذه المناسبات.

وتقبلوا، إلخ"

وحول هذه المسألة المتعلقة بالحجاج، تم توجيه رسالة إلى وزير الداخلية بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٨٩٦م، لم يرد الجواب عليها إلا في ٤ نوفمبر من نفس العام !

وتوجد نسخة للرسالة المؤرخة في ٤ نوفمبر بأرشيف سكرتارية التسجيل البحري في مرسيليا بشارع موي Muy. أما التقرير الخاص بي

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والرسائل المتعلقة بالتحقيق حول سلوكنا على متن سفينة "جرغوفيا" فموجودة في أرشيفات وزارة الداخلية [٤٨] .

وحين استدعاني مدير الصحة بمعيّة قبطان السفينة للمثول أمام مفوض التسجيل البحري، لم أتمكن من الحضور لجلسة المحكمة، إذ كنت حينها غادرتُ من جديد على متن سفينة البريد المتوجهة إلى الغابون. ولم أعرف نتيجة تلك الجلسة إلا بعد عودتي بثلاثة أشهر في ١٦ ديسمبر من عام ١٨٩٦م.

سَلَّمَ إليَّ موظف الإدارة الرسالة التي سبق الإشارة إليها، ومضمونها مستلهم من البيانات المكتوبة التي رَفعتُها إلى السيد وزير الداخلية، الذي يبدو أنه نظر إلى ذلك بعين الرضى، وتم طي الموضوع نهائيًّا. [٤٩]

***

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل السابع:
ما تَمّ إنجازه

إن الازدحام الشّديد هو جوابي على عتابهم أنني أهملتُ القيام بواجبي في المصلحة التي أنتمي إليها، وحرّفتُ الحقيقة في التقرير الذي رفعتُه. أن الازدحام، كما ذكرتُ سابقا، هو من يُسبّب الشلل في أية مصلحة ويُعيق أية رقابة ويقطع أية محاولة للحركة. ولحسن الحظ، لو نزلت الأمطار بشكل استثنائي في هذه البلاد التي يغلب عليها طابع الجفاف، لكانت عاقبة الازدحام مأساوية !

فلنستمع بهذا الخصوص إلى الكاتب البارز البروفسور فونساجريف Fonssagrives، الذي تتشرّف به كلية الطب في مونبوليي ومدرسة بريست Brest: "الازدحام وضعٌ مؤذٍ، حيثما تكدّس الناس بكثرة في مجال ضيق، يرتفع عدد الوفيات بشكل كبير، سواء أكان ذلك المجال مدينة أو مخيمًا أو ثكنة أو سفينة".

وحسب ج. ج. روسو J. –J. Rousseau فإن الناس لم يُخلَقوا ليعيشوا مُكدّسين بعضهم فوق بعض، كما في عش النمل، لكن ليعيشوا بشكل آدمي على الأرض التي يجب عليهم حرثها، وكلما تجمعوا سعى بعضهم إلى إفساد بعض. والأكيد أن عيوب الجسم ورذائل النفس لها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تأثيرها في كل ذلك. والإنسان وحده، من بين كل الكائنات، هو الأقل رغبة في العيش كقطيع. فتكديس الناس كقطعان الغنم سرعان ما يؤدّي إلى هلاكهم في وقت قصير. فَنَفَسُ الإنسان [٥٠] قاتل للإنسان، وهذا صحيح في الحقيقة كما في المجاز" (١).

وبناء على ذلك، وقبل انعقاد المؤتمرات الدولية، كان فونساجريف سبّاقًا للدعوة إلى تجنب الازدحام على متن السفن.

من بين مقررات مؤتمر الصحة العالمي الذي انعقد في القسطنطينية(٢) في ١٦ فبراير ١٨٦٦م (جلسة يوم ١٣ أغسطس ١٨٦٦م، برئاسة صوليح أفندي) (٣) ورد في تقرير الدكتور مونلو Monlau حول الإجراءات الصحية الواجب اتخاذها للوقاية من الكوليرا الأسيوية(٤)، والصادرة عن

(1) J. –J. Rousseau, Emile, Paris, 1839, Traité d'hygiène naval, Fonssagrives, t.1, p. 38.

(٢) أي في العاصمة العثمانية إستانبول التي تتعمّد الكتابات الغربية إطلاق اسم القسطنطينية عليها تذكيرا وتمجيدا للعهد الروماني.

(٣) لم نقف على تعريف لهذه الشخصية العثمانية التي كان لها دور في مؤتمر الصحة العالمي المشار إليه.

(٤) تُسمى أيضًا الكوليرا الوبائية، وهي من الأمراض المعوية المعدية الناتجة عن جرثومة تنتقل إلى البشر عن طريق تناول طعام أو شراب ملوث.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

اللجنة المكونة من أطباء ودبلوماسيين، نقرأ في الصفحة ٢٤ ما يلي: "إن المراقبة الصحية عند الانطلاق تتطلب تحقُّق الطبيب وبشدّة من الحالة الصحية لأفراد طاقم السفينة، وعدد البحارة ينبغي أن يتناسب مع حمولة السفينة ومدّة العبور، ومن الأهمية بمكان ملاحظة صحة الركاب قدر المستطاع، وينبغي أن يتناسب عدد هؤلاء مع حمولة السفن وقدرة الإيواء في الحجرات (كابينات)، وعدد الأسرّة والمرتَبَات والأغطية ومدّة السفر.

والازدحام هو أكبر عيب في المساكن البحرية، خاصة في زمن الكوليرا. ولم تتردّد اللجنة الصحية في تحديد سقف عدد الركاب المسموح بحملهم حسب الأنظمة، وكبح جشع أرباب شركات الملاحة البحرية وقباطنة البواخر التجارية الطامعين في إركاب أكبر عدد ممكن من المسافرين، وتكديسهم في كابينات وجسور سفنهم، عكس الشروط الأساسية للحياة والصحة" (١).

سيكون لزامًا علينا الإشارة إلى ما ورد في مؤتمرات الصحة العالمية حول الإجراءات الواجب اتخاذها لوقف غزو [٥١] الكوليرا والأمراض الوبائية المعدية. سأتوقف عند مقررات مؤتمر باريس بتاريخ ٧ فبراير

(1) Rapport du Docteur Monlau, séance du &" août 1866

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١٨٩٤م برئاسة السيد كازيمير بيريي Casimir Périer وزير الشؤون الخارجية.

ومما جاء في هذا المؤتمر أن من مصلحة كل الشعوب الحفاظ على اتفاق مربح للجميع، وبأن الوقاية من الأمراض والاهتمام بالنظافة يؤتيان أكلهما في أي زمان ومكان.

ومن بين مقررات جلسة يوم ١٦ فبراير حول السفن النّاقلة للحجاج، ورد في الفصل الثالث ما يتعلق بالاحتياطات الواجب اتخاذها خلال رحلة العبور:

- البند ١١، ضرورة وجود طبيب مجاز ومفوض من طرف الدولة على متن أية سفينة تحمل ١٠٠ حاج أو يزيد؛ وطبيبين إن تجاوز العدد ١٠٠٠ حاج.

- البند ١٢، يقوم الطبيب بعلاج الحجاج المرضى وكبار السن ويسهر على إلتزام قواعد النظافة على متن السفينة، ويجب عليه على وجه الخصوص:

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١) التأكد من أن الطعام الذي يوزع على الحجاج صحي وبالكم والقدر الذي تعهدت شركة الملاحة بتوفيره، وأن يكون إعداده بطريقة مقبولة ولائقة.

٢) ضمان التزام الشروط الخاصة بتوزيع الماء على الحجاج.

٣) أن يُذَكَّرَ ربان السفينة كتابة بالبند ٢١ في حالة وجود شك في جودة الماء الصالح للشرب.

٤) أن يسهر على ضمان بقاء السفينة نظيفة في كل الأوقات، وأيضًا على تنظيف المراحيض باستمرار وفقا لمتطلبات المادة ١٨.

٥) ضمان بقاء سُكنى الحجاج في [٥٢] وضع صحي، وفي حالة وجود أي مرض مُعْد، يتم إخضاع المكان للتطهير كما هو مبين في المادة ١٩.

- البند ١٣، يتم إسكان الحجاج في المكان المخصص للمسافرين، ويوفر الطاقم لكل حاج بغض النظر عن السن، على الأقل مترين مربعين، أي: مترٍ على مترين وعلو متر واحد و٨٠ سنتيمتر.

- البند ١٦، ينظف المكان المخصص للمسافرين يوميًّا بالمواد المطهرة، في الوقت الذي يصعد فيه المسافرون إلى ظهر السفينة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

– البند ١٩، يُراعى في تنظيف السفينة وتطهيرها مقررات اتفاقية البندقية، من حيث استعمال المواد المطهرة المشار إليها في المادة ٥ من الملحق رقم ٤، والتي جاء فيها: "يتم إفراغ الكابينات الموجودة في مختلف أجزاء السفينة، وتطهير الجدران بواسطة محلول يضاف إليه ١٠٠٪ من الكحول. وتغسل الأخشاب بنفس المحلول. وبعد ساعتين يتم فرك الجدران والسقف بالماء وغسلها. أما الإسفين فيوضع فيه قدر من كبريت الحديد لتحييد كبريت الهيدروجين. بعد ذلك يتم إفراغ مياه الإسفين وغسله بماء البحر، ثم يضاف مقدار من محلول التطهير مرة ثانية، ويمنع إفراغ مياه الإسفين في الميناء".

– البند ٢١، في حال الشك في صلاحية الماء الصالح للشرب أو تلوثه إما في الأصل أو خلال الرحلة، يجب غليه وتقطيره، أو يقوم الربان بالتخلص منه في البحر، ويعمل على الحصول على ماء صالح في أقرب فرصة.

– البند ٢٤، أن يخصص مكان طاهر وصالح للتمريض يتم إعداده لإيواء المرضى[٥٣]. وأن يكون باستطاعة هذا المكان إيواء ما معدله ٥٠٪ من مجموع الحجاج بمعدل ثلاثة أمتار مربعة للفرد.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- البند ٢٥، أن تتوفر السفينة على مكان لعزل المرضى المصابين بالكوليرا أو بما شابهها، لا يدخله إلا الأشخاص المكلّفون بالعلاج، وُيمنع أي اتصال لهؤلاء بالركاب الآخرين.

هذه أهم مقرارات مؤتمر باريس لسنة ١٨٩٤م التي تخص الطبيب المفوّض من طرف الدولة على متن سفن شركات النقل، وقد أردت التذكير بها. وسبق للحكومة الفرنسية أن أعطت تعليمات للأطباء المفوّضين لنفس المهمة سنة ١٨٩١م، ذكرها الطبيب دولارو Delarue في أطروحته[١] ومن بينها:

١) أن يقوم الطبيب بزيارة المرضى وطاقم السفينة يوميًّا وتسجيل الحالة الصحية وأحوال الطقس في دفتر المراقبة الصحية للمرضى الذين يعالجون على متن السفينة. يسلم هذا الدفتر للسلطات الصحية عند الطلب.

٢) أن يسهر على ضمان بقاء السفينة في حالة نظيفة ويتم الالتزام بشروط النظافة والوقاية.

(٩٢)- Chapitre V, Prophylaxie, Désinfection locale.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٣) مراقبة الطعام والماء والأرز وغيرها من الضروريات المطلوبة والمؤكد عليها في الإرادة السلطانية[١] عام ١٨٨٠م.

٤) الحرص على التزام ربان السفينة بالأوامر الواردة في تلك الإرادة.

٥) تطهير ملابس الحجاج الخاصة مرة في الأسبوع عبر إدخالها في آلة التطهير geneste. وتمكين الحجاج من الاستحمام واحدًا بعد الآخر [٥٤] بواسطة مضخة للماء، كما ينص على ذلك القانون المنظم، ولهم الحق يوميًّا في دش (حمام).

٦) في حالة ظهور أي مرض وبائي أو مُعدٍ يتم عزل حالات الإصابة في غرف نظيفة وتمتاز بتهوئة جيدة في المقدمة مخصّصة للتطبيب. ويتم العناية بها بحيث تكون أقل ازدحامًا وتتمتع بشروط صحية ممتازة. أما الأشياء المتعلقة بهؤلاء المرضى فيتم تطهيرها بشكل جيد.

(١) المقصود بالأرادة السلطانية (l'iradé du Sultan) الأمر السلطاني، الذي يعكس حرص السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٨٠٨م) واهتمامه بشؤون الحجاج وسفرهم إلى البقاع المقدّسة وكانت تابعة حينها للدولة العثمانية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٧) في حالة موت أحد الركاب يُعِدّ الطبيب تقريرًا يحدد فيه الأسباب، ويتم تطهير الأشياء المتعلقة بالميت قبل أن تجف، وتمريرها في مكينة التطهير.

٨) يتم إحصاء أمتعة الميت ووضعها في ظروف مُشمّعة، وعليها معلومات الشخص والبلد الذي ينتمي إليه.

٩) يتم يوميًّا تحييد الروائح الكريهة التي تَعلق بالأماكن التي يرتادها الحجاج، وذلك بتبخير الجو بمعطرات مطهرة وذلك رغم التنظيف بالماء الذي يتم كل أربع ساعات.

١٠) للطبيب المفوض الحق في أن يفرض على الربان والحجاج كل ما من شأنه أن يحفظ السلامة الصحية العامة، بحيث يمكنه التخلص من أي شيء لا يمكن ضمان تطهيره بشكل جيد بالطرق المعتادة وذلك برميه في البحر.

١١) يولى اهتمام خاص لمكينة التطهير للحفاظ عليها بحيث تبقى صالحة للاستعمال، ويُستبعد تطهير الأشياء المصنوعة من الجلد، خوفا من تغيير شكلها أو إتلافها [٥٥]، ويتم تنظيفها بواسطة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محلول من حمض الكربوليك مخفف بنسبة ١٠ إلى ٢٠٪ من الماء، بعد تذويبه في كحول من ٩٠ درجة.

١٢) بعد العودة من السفر يُعِدُّ الطبيب المفوض تقريرًا مفصلًا يقدمه إلى الحاكم العام بالجزائر[١]، يتناول فيه كل الوقائع الصحية بما في ذلك درجة النظافة والأمراض التي عالجها أو لاحظ شيوعها خلال الذهاب والإياب، وكذا مقترحاته الخاصة بتطوير هذه المصلحة.

أُعدَّ وسُلِّمَ بأمر من الحاكم العام في الجزائر بتاريخ ١٢ يونيو ١٨٩١م.

توقيع: موران Maurin، مدير الصحة.

كما أن مجلس الصحة العالمي في القسطنطينية بتركيا وضع هو الآخر شروطا مُقنِّنة، تخص السفن القادمة من جدة، من بينها:

(١) الإشارة هنا إلى سفر الحجاج الذي ينتهي في ميناء مدينة الجزائر أو غيره من موانئ القطر الجزائري، الذي كانت فرنسا تعتبر أرضه جزءا منها طوال مدة احتلالها (١٨٣٠-١٩٦٢م)، وقد كان مفروضا على الطبيب المرافق لباخرة نقل الحجاج تقديم تقرير مفصل إلى الحاكم العام في الجزائر يعكس الظروف الصحية للحجاج. وهذا من حرص فرنسا على سلامة مستعمراتها من أن تكون مرتعًا للأوبئة والأمراض المعدية، مما قد يؤثر سلبًا على مصالحها ويُسيء إلى سمعتها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١) أن للسفن البخارية والمزدوجة[١] فقط الحق في نقل الحجاج خارج مضيق باب المندب وقناة السويس.

٢) أن المساحة المخصصة لكل حاج بغض النظر عن سنه هي: ٩ أقدام مربعة أو ٥٤ فيما بين الجسرين. ويمنع منعًا كليًّا سكن الحجاج على ظهر السفينة، ولا يسمح باستعمال ظهرها إلا من قِبل طاقم السفينة والحجاج المسافرين بين الجسرين.

٣) إذا كانت السفينة تتوفر على شهادة رسمية للعام السابق، فإنها لا تخضع لعملية قياس ثانية.

٤) يتم قياس مساحة السفن التركية بواسطة ضابط بحرية تركي ومعه طبيب صحة. ويكون مكتب طبيب الصحة مجانًا. أما مسح السفن الأجنبية فلا يتم إلا بعد رفع طلب بهذا الخصوص من خلال قناصلها. [٥٦]

٥) للسلطات الصحية الحق في رفض براءة الصحة التي تحملها سفن لا تتوفر على شهادة وتحمل حجاجًا على متنها.

(١) هي السفن البخارية المزودة بأشرعة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يجب تجنب الاكتظاظ، هذا بإيجاز ما تؤكده مقررات المجلس الصحي للقسطنطينية.

وكما تلاحظون فإن الإرشادات لا تتوقف عند الجزئيات في هذه القائمة، المهم هو تجنب عرقلة الحركة، وهذا هو الشغل الوحيد للحكومة التركية.

لم يبق إلا أن نشكرها على هذا التدبير الحكيم، الذي يترك سطح السفينة حُرًّا للبحارة ويحمي الركاب من بلل الأمواج.

***

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفصل الثامن:
ما يتعيّن القيام به

أدركنا من خلال الفصول السابقة درجة الصعوبات الأمنية والصحية التي واجهت السفن الفرنسية المحملة بالحجاج المتوجّهين من جدة إلى أي مكان آخر.

أعرف أنه لا يمكن مقارنة كل البواخر التي قامت بهذه المهمة مع الباخرة "جرغوفيا". ففي عام ١٨٩١م سافر الدكتور ليون دولارو من الجزائر على متن السفينة "بيكتافيا" Pictavia المملوكة لنفس الشركة المرسيلية[١]، وكان مُفوّضًا من وزارة الداخلية ومزوّدًا بالقرارات التنظيمية التي عَرضتُ مقتطفات منها أعلاه.

ففي الفترة التي مارستُ فيها وظيفة طبيب صحي على متن الباخرة "جرغوفيا" (يونيو ١٨٩٦م)، كان زميلي الدكتور ألميراس Alméras مفوضًا من طرف الحكومة لنفس المهمة على متن "غاليكا" Gallica. لكن هذه الباخرة غادرت من مستعمرة فرنسية (الجزائر)

(١) أي شركة سيب فابر Cyp-Fabre التي تملك الباخرة "جرغوفيا".

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعادت إلى نفس المياه الإقليمية الفرنسية[١]. كانت محملة بخمسمائة مسافر متجهين إلى ميناء الجزائر، في حين كنا نحن محملين بعدد لا محدود من الركاب، لسبب بسيط هو أن رحلتنا كانت متجهة أولًا إلى طرابلس (الغرب) وتنتهي إلى موغادور (الصويرة). لماذا هذا الاختلاف؟... أعرف أننا نسعى لإبعاد خطر عدوى الأمراض عن مستعمراتنا الفرنسية، وبأننا لا نتورع عن نقل الجراثيم الخطيرة إلى البلاد الأجنبية[٢]. ومع ذلك فإن طاقم "جرغوفيا" المكون [٥٨] فقط من بحارة فرنسيين، جدير هو الآخر بنفس الاهتمام، مثلهم في ذلك مثل طاقم "غاليكا" المكون هو الآخر من بحارة فرنسيين.

بالرغم من أن هذا الأمر من اختصاص الإدارة، فإن من واجبي الإشارة إليه.

(١) هذه العبارة إن دلّت على شيء فإنما تدل على تحكم الروح الاستعمارية لدى المؤلف، الذي لم يعتبر أرض الجزائر وحدها مستعمرة فرنسية، بل حتى مياهها الإقليمية، وهذا منتهى الهيمنة والإمعان في طمس الحقيقة التاريخية.

(٢) وهذه حقيقة أبى المؤلّف إلا أن يقف عندها، ولكن لغاية في نفسه، حيث ذَكّر الإدارة الفرنسية، منبهًا إياها بمنتهى الصراحة، أن العاملين على ظهر السفينة "جرغوفيا" هم أيضًا فرنسيون وفي حاجة إلى نفس الاهتمام والرعاية التي يحظى بها طواقم السفن العاملة فيما بين فرنسا ومستعمراتها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أترك الكلمة الآن للأستاذ لانكلوا Langlois من كلية باريس، وهو مساهم متميِّز في الصحافة الصحية. لخّص في مقالة له يوم ١٨ فبراير ١٨٩٩م، عنوانها: "أطباء الصحة البحرية"، مضمون المؤتمرات الدولية لروما والبندقية وغيرهما، التي أحدثت تغييرًا عميقًا في التنظيمات الصحية المفروضة على سفن المسافات الطويلة. وتؤكد تلك التنظيمات الدور الهام للأطباء المرافقين الذين تقع عليهم مسؤولية محاربة الأمراض الوبائية. وأنا أؤمن أنه بوجود عُمّال متعلمين في مجال الصحة، مستقلّين، ومزوّدين بمعدّات جيّدة للتطهير، يمكن حماية سواحلنا بشكل ناجع.

لكن يجب توفر أطباء مؤهلين ومستقلين ومسلحين بأدوات كافية.

هل هذه الشروط الثلاثة معمول بها الآن في فرنسا ؟ يمكنني الإجابة بسهولة بالنفي. فلنتناول بداية قضية الموظفين، وهي هامة وصعبة الحل مقارنة بمسألة الأدوات. وقد ورد في مرسوم ٤ يناير عام ١٨٩٦م تحت عنوان: "هيئة أطباء الصحة البحرية" أن هذه الهيئة ليست في مستوى المهمة الموكولة إليها، ولا يمكن أن تكون كذلك. وأنا واثق أن هذا الجزم لن يثير أي اعتراض من زملائنا الموجودين في الخدمة على متن السفن.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن الطبيب الموجود على متن السفينة لا يتوفر على التكوين المطلوب، لأن الوقت بشكل عام لا يُسعفه في ذلك. وأتحفظ بطبيعة الحال بخصوص بعض الاستثناءات السعيدة. فالأطباء الجدد المتخرجين بتفوّق أكثر أو أقل [٥٩] من الكليات العلمية الفرنسية في الطب، لا يحملون على الإطلاق أي تعليمات صحية. فوجود الاختبار الرابع للدكتوراه، حيث يجب على المرشَّحين الإجابة عن أسئلة في الصحة والعلاج والطب الشرعي لا يوفّر إلا ضمانة وهمية. فمن بين ١٠٠ طالب يتم اختبارهم عشرة فقط منهم يتوفرون على مفاهيم جادة عن التربية الصحية. أشير هنا إلى الحالة بدون تدقيق.

بمجرد حصول الطالب على دبلوم الدكتوراه، يجب عليه إن أراد العمل على متن السفن المثول من جديد أمام لجنة تحكيم، مُعيّنة من قِبل وزارة الداخلية، للخضوع لفحص خاص.

يتكون هذا الفحص من اختبارين كتابيين تمتدّ من ساعة إلى ساعتين، في علم الأوبئة وفي التشريعات الصحية؛ واختبارين شفاهيين في نفس المواضيع، بالإضافة إلى اختبار تطبيقي عملي في أوّليات علم الجراثيم: البحث عن بكتيريات محددة لأمراض معدية ووبائية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

قد تكون هذه الاختبارات في مجملها كافية لضمان موظفين ذوي خبرة، من خلال انتقاء مجموعة محظوظة من بين المرشحين. لكن المرشحين المتميزين مفقودون، والفحص أصبح إجراءً شكليًّا. وأحيانا للتمييز يتم طرح أسئلة صعبة مثل: التفاضل من خلال استعمال ميكروسكوب بكتيريا إيبرت والبكتيريا القولونية !

لماذا هناك افتقار في عدد المرشّحين، في حين أن عدد المتعاطين لمهنة الطب كثيرون؟ لأن مصير الأطباء على متن السفن لا يوجد فيه شيء مُغر، وقليلون من الشبان من لهم الشجاعة – بعد حصولهم على الدكتوراه – لتخصيص ستة أشهر أو سنة لأبحاث جديدة، ومواجهة صعوبات مباراة لوضعية أكثر من متوسطة ولا تبعث على الأمل.

صحيح إن ضبّاط البحرية التجارية، باستثناء قائد السفينة، هم ذوو الأجور المتدنية، لكنهم محسوبون [٦٠] بالضرورة على التسجيل البحري[١]، ولهم الحق في تقاعد يبدأ من أول يوم في الوظيفة. أما الطبيب، إن جاز التعبير، فهو خارج هذا النظام، وليس له الحق في

(١) هي إدارة رسمية، تابعة للدولة الفرنسية، من وظائفها السهر على مصالح البحارة وموظفي البريد البحري الرسميين حفاظا على حقوقهم عند بلوغ سنّ المعاش.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المعاش، ولا يتمتع بالامتيازات المخصصة لرجال البحر، وهو مَن وَفَّرَ لهم الرعاية الصحية خلال ثلاثين سنة من حياته.

إن دور الطبيب في مكافحة الأوبئة يعكس تمتعه ببعض الاستقلالية وعدم الخضوع لقائد السفينة ولمالكها وللشركة. فهو مسؤول عن الدفتر الصحي ومُطالب بإرسال تقارير عن الحالة الصحية على متن السفينة إلى اللجنة الاستشارية للوقاية الصحية. وبما أن "أطباء الصحة" مُعيّنون من قِبل الدولة، وأجورهم تُدفع من قِبل شركة الملاحة، فإن القبطان يسعى ليكون سَيِّدًا مطلق الصلاحيات على متن السفينة، وإذا حدث أن أراد يومًا ما إخفاء الحقيقة والتهرب من بعض التدابير الصحية، فإن وضع الطبيب يصبح حرجًا بين ما يمليه عليه الواجب والضمير المهني وبين مصلحته الشخصية. فقائد السفينة مضطر لاصطحاب طبيب حامل للشهادة على متن سفينته ليتماشى مع متطلبات القانون، لكنه في المقابل لا يريد إثارة مشاكل، ويعتبر الطبيب الذي يريد القيام بواجبه على أتم وجه خائنًا أو جاسوسًا. فالطبيب الذي يوصف بأنه شديد أو صاحب ضمير يَخشى أن لا يجد عملا إلا في أسوأ بواخر الملاحة البحرية، ذات الرحلات الصعبة وغير المريحة، أو لا يجد عملًا على متن أي منها على الإطلاق. الكثير من التعليمات يتم التهرب منها أو تطبيقها بطريقة وهمية. قبل كل شيء

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لا ينبغي إغضاب السلطة "التي تدفع راتبك وتُشَغّلك". من يتحدث بهذا؟ هل هو أحد العقول الميّالة دائمًا للنقد، أم ضحية طوعية للكفاح من أجل الحياة ؟ – لا، إنه المفتش الطبي فالان Vallin أثناء تحليله لكتاب تيري Thierry حول "شرطة الصحة البحرية".

بعد عرض الوضع غير المستقر للأطباء على متن السفن، بقيت الإشارة إلى التحسينات التي يمكن إدخالها [٦١]. فمن هنا على وجه التحديد تظهر الفائدة من السؤال، والعلاج سهل على الأقل بالنسبة إلى الوضع المالي.

أي شيء أطلبه مكافأة لزملائي، الذين يُدافعون عن بلادنا ضد غزو الأوبئة؟ راتب مناسب ومستقبل مضمون.

بالنسبة إلى الراتب، يكفي ضمان زيادة في الأجرة الحالية التي تُؤمّنها الشركة البحرية، مع إضافة ثابتة ترتفع بموازاة مع سنوات العمل، والتي يتم استخلاصها من إيرادات الخدمات الصحية.

وبالنسبة إلى ضمان المستقبل، يكفي منحهم وضعًا مناسبًا بعد مرور سنوات من الخدمة في الملاحة البحرية. وبدون التشديد على تحديد مُعدّل المعاش عند التقاعد، بحيث يقترب من معاش قباطنة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

السفن أي ١٢٠٠ فرنك، أرى أنه بالإمكان ومن العدل منح أطباء الصحة، بعد مرور خمس عشرة أو عشرين سنة من الإبحار، مناصب دائمة في البَرّ، إما وكلاء رئيسيين، أو مديرين للصحة، وهي مناصب يُعَيّن فيها أشخاص لم يسبق لهم ركوب البحر، وغالبًا ما يتم تعيينهم بسبب مؤثرات انتخابية، وهو ما لا يُميّزهم عن باقي الموظفين في قسم الوقاية الصحية، وهم تابعون أساسًا لوزارة ذات طابع سياسي هي وزارة الداخلية.

أما موظفو البريد الذين يشتغلون على متن سفن الأسفار الطويلة الخاصة بالبريد البحري، أو شركات أخرى مدعمة من طرف الدولة، فلهم استقلالية شبه مطلقة. يَخافُ منهم قائد السفينة بسبب التقارير المفصلة التي يُعدّونها ويُسلّمونها لرؤسائهم عند العودة. هذه التقارير لا تستثني عند الضرورة لا القبطان ولا الشركة. وحسب ما أخبرني به أحد موظفي البريد، رافقته على متن سفينة تابعة لنفس المصلحة خلال رحلة من إفريقيا الغربية، فإن المعدات والراحة التي لا غُبار عليها على متن سفن البريد البحري [٦٢]، يرجع الفضل في جزء منها إلى الشكاوى المستمرّة التي كان يصوغها موظفو البريد.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه، هو أن أجور هؤلاء المستخدمين تؤديها الدولة، وهم لا يخشون الطرد أو الإعفاء من مهامّهم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يتمتع موظف البريد بالاستقلالية والتقدير، ويُخصَّص لمصلحته مكانًا واسعًا ومشمسًا على متن السفينة، وحجرته مرتّبة، لا يمكن مقارنتها بحجرة الميكانيكي الذي يتم إسكانه حسب ما هو متاح وفي أي مكان.

ودون الحاجة إلى طلب ما هو مستحيل لصالح ضباط الصحة، فإن الأمر يبدو لي غير مكلف البتة بحيث يُمنحون بعض الاستقلالية (خاصة فيما يتعلق بالمصلحة التي ينتمون إليها)، وشيئًا من التقدير الزائد، ومَدّهم ببعض وسائل الراحة أو جعلها رهن إشارتهم.

وكخلاصة لبحثي هذا أقتبس من جديد من مقال لانكلوا الموسوم "معدات الصحة البحرية" الملاحظات الرئيسة التي عبّر عنها هذا الأستاذ المتميز: "إن بناء السفن الجديدة موجّه بالأساس إلى خدمة المسافرين من الدرجة الأولى؛ أما المكان المخصص لمسافري الجسر فضيّق مقارنة بما كان عليه الحال في السفن القديمة. أما التهوية فغير كافية، ولا يوجد أية وحدة تهوية ميكانيكية في ظهر السفينة السُّفلي، ولا نستطيع أن نُعوّل على خدمة تيّار الرياح، على الأقل أثناء عبور البحر الأحمر، عندما تكون حركة الريح خفيفة ويتم الانتقال إلى التهوية الاصطناعية. وحسب تقرير

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أرسله قائد سلاح ورد ما ملخصه أن ظهر السفينة السفلي بالطريقة التي أُعدّ بها غير آمن وغير صحي بالنسبة إلى الركاب.

أما المشفى الموجود على متن السفينة، حيث ينبغي استقبال المرضى في حالة خطيرة [٦٣] لأجل التمريض، والموجود في كل السفن التي يتم كراؤها فهو غير كافٍ. يُخصّص مكان في مقدمة السفينة إما في الميمنة أو الميسرة، رقيق الجدران تكون التهوية فيه بواسطة مناور، تصبح الحرارة فيه حارقة عند اشتداد حرارة الشمس. أما الأسِرَّة الإثنا عشر فوضعت بشكل متقابل اثنين أمام اثنين، بحيث يصعب فحص المريض في سريره، ما يضطر الطبيب لفحصه على سرير مستقل مطوي مُخصّص لهذا الغرض.

وللحصول على مشفى مناسب لابد من مكان ملائم معرّض للتهوية بشكل دائم ويتسع لغرفتين لعزل المرضى.

أما بالنسبة إلى مُعدّات التمريض والصيدلية ومربع الجراحة فيثير بعض الانتقادات، وسيكون كافيًا القيام ببعض التغييرات غير المهمة للتغلب على العيوب الحالية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لابد من "إصلاح مُعدّات الجراحة التي تعود إلى أربعين سنة خلت، إذ لا وجود لكُلَّاب لاقط ولا لمكواة"(١).

ونضيف –أحيانا– لا وجود لميزان حرارة سريري.

وهذا نموذج للرسالة التي تلقيناها من أحد زملائنا أثناء وجوده في ميناء ينبع على متن سفينة "غاليكا":

"بتاريخ ١٦ يونيو، منتصف النهار.

سيدي وزميلي العزيز،

هل يمكنكم إعارتي ميزان الحرارة الطبّي ؟ لدي بعض الركاب المصابين بالأنفلونزا، وأحتاج إلى قياس درجة حرارتهم.

مع شكري مقدمًا..

إمضاء: الدكتور A...".

(1) Aglois, Presse médicaledu 1er avril 1898, n° 26

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويضيف الدكتور لانكلوا: "تُسلَّم البراءات والتأشيرات من قبل القنصل الفرنسي في كل محطة، وليس هناك أسهل من توجيه إشعار للشركات لامتثال اللوائح التنظيمية"(١).

أما بخصوص نقل حجاج مكة بواسطة السفن الفرنسية، فإن أفضل وأسلمها وقاية بالنسبة إلى بلادنا ليست في التزام القوانين المنظمة ولكن في إلغائها مطلقا.

اطلع عليه وسمح بطباعته	**نُظر وصُدق عليه**
مونبوليي في ٤ مايو ١٨٩٩م	مونبوليي في ٤ يونيو ١٨٩٩م
عن رئيس الجامعة	**عن العميد**
نائب الرئيس لمجلس الجامعة	مساعد العميد
الدكتور A. SABATIER / أ. سباتيي	الدكتور HAMELIN هاميلان

***

(1) Langlois, Presse médicale du 1er avril 1899, n° 26

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

القَسَم المهني

"بحضور أساتذة هذه المدرسة وزملائي في الدراسة وأمام صورة أبقراط، أعد وأقسم باسم الكائن الأسمى، أن أكون مخلصا لقوانين الشرف والنزاهة في ممارسة مهنة الطب. سوف أعطي العلاج المجاني للمحتاجين، ولن أطالب بأجرة أعلى مما أستحق. عندما يُسمح لي بدخول البيوت، لا ترى عيني ما يجري، ويبقى لساني صامتًا عما يُسرُّ إلي، ووضعي لا يسمح لي بإفساد الأخلاق أو تشجيع الجريمة. أحترم وأمتَنُّ لأساتذتي، وسأقدم لأبنائهم التعليم الذي تلقيته من آبائهم.

وعلى الناس أن يُقدّروني ما دمتُ وفيًّا لوعودي! وعلى زملائي ازدرائي واحتقاري إن فشلت !"

***

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

خلاصة وتعقيب

عرّف المؤلف في هذه الرسالة العلمية بالظروف التي صاحبت نقل الحجاج المغاربة من البقاع المقدسة إلى المغرب الأقصى. إذ كشفت عن مدى تشبث المغاربة بزيارة المدينة المنورة والصلاة في المسجد النبوي الشريف والسلام على النبي المصطفى الأمين بعد قضاء مناسك الحج. كما أعطتنا صورة عن أهم محطات هذه الرحلة الروحية في بلاد الحجاز، خاصة التعريف بمدينة جدة وميناءها الذي هو بوابة مكة المكرمة، ومدينة ينبع وميناءها الذي هو بوابة المدينة المنورة عند المغادرة. ولم يفت لويس ليون طيراس وصف الموقعين بدقة متناهية لأهميتهما بالنسبة لرحلة الحاج المغربي، فكان بارعًا في تتبعه المحطات التي مرت منها أو حطت فيها الباخرة "جرغوفيا" منذ انطلاقها من ينبع، على ساحل البحر الأحمر، وإلى حين وصولها إلى الصويرة، على المحيط الأطلسي، فجاء حديثه عن ميناء الطور ومحجره الصحي وعن ميناء الصويرة ومحجرها غاية في الإفادة. كما صوّر أطوار رحلة الحجاج المغاربة وبعض حجاج طرابلس الغرب ومعاناتهم منذ عملية الإركاب في ينبع وحتى فرض حجر صحي على الحجاج في طور سيناء، ثم وصولًا إلى طرابلس الغرب حيث تم إنزال قسم من الحجاج، وانتهاء بنزول من

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بقي من الحجاج في ميناء الصويرة. وقد أبرز الباحث متاعب السفر الصحية والمعيشية ومشاكل الماء والنظافة وغيرها مما له ارتباط بتلك الرحلة المضنية.

كان طيراس بارعًا في تصوير حالة الاكتظاظ وتكدّس الحجاج على متن السفينة، وجشع أرباب سفن النقل، وانعكاسات ذلك على أمزجة الركاب وعلى طاقم السفينة وطبيب الصحة المرافق. ظهر ذلك جليًّا في حالات الفوضى قبل السفر وأثناءه وفي نهايته، وفيما حصل من أحداث، عرّت جوانب من شخصية المؤلف ونظرته إلى الآخَر الذي هو "العربي" و"المتعصب" و"المتوحش" و"المتعصب" و"القطيع"، كما عكست شكوك الحجاج من ذات "الطبيب" وردود فعل بعضهم المعادية سواءً بإخفاء المصابين من المرضى عن عينه، أو بإبراز العداء بالكلام والحركات غير اللائقة ضد طاقم السفينة بعد الوصول.

كان وصف طيراس لبعض المواقع التي زارها أو مرت منها السفينة دقيقًا وصادقًا[١]، إذ قدّم معلومات غاية في الأهمية عن مدينة جدة

(١) حرصنا على التثبت من معلومات هذا الأخير بخصوص مينائي جدة وينبع فقمنا بزيارة ميدانية إليهما، كما زرنا موقع ينبع النخل الذي يعتبر من أبرز محطات الحجاج المغاربة أثناء عودتهم =

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وميناءها الإسلامي، وعن مدينة ينبع وميناءها القديم. لكنه في مقابل ذلك وقع في أخطاء تعكس عنصريته تجاه الحجاج المسلمين، من قبيل وصفهم بالمتعصبين والمتوحشين. كان حري به تجنب ذلك في رسالة علمية قدّمها حسب قوله أمام أساتذة علماء. ما من شك أن سقطاته تنمّ عن جهله المطبق بالإسلام وعلمائه، حيث اعتبر الحج مثلًا رابع أركان الإسلام وهو خامسها، كما اعتبر أبا بكر الرازي عربيًّا وهو العالم والطبيب الفارسي المتوفى عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م، دون تمييز بينه وبين فخر الدين الرازي العربي الأصل، الذي اشتهر بعطائه في علم الكلام والمنطق والتفسير والمتوفى عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م.

ليس غريبًا أن يقع باحث مثله في العديد من هذه الأخطاء، لكن العيب ألاّ ينبهه من قرأ بحثه أو أشرف عليه ممّن نوّه بهم خلال تقديمه لرسالته العلمية، كما أنه ليس عجيبًا أن تَفُوت أولئك الأطباء، في لجنة المناقشة، معلومات عن الإسلام وعن العلماء والأطباء المسلمين الذين كان لهم قصب السبق في خدمة الطب في الغرب، وقد تُرجمت مؤلفاتهم

=

من المدينة المنورة في اتجاه ينبع البحر، وسبق أن زرنا ميناء الصويرة قبل ذلك وتبين نجاح المؤلف فيما أورده من وصف لهذه المواقع.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ودُرست في كليات الطب في أوروبا لأمد طويل. لكن ما يُؤسف له هو غَضُّ أولئك الأساتذة العلماء الطرف، إما عن جهل أو عن قصد، عن توجيه الباحث حتى لا يقع فيما وقع فيه من هفوات وأحكام عنصرية تجاه الحجاج المسلمين.

وإذا استثنينا بعض الأحكام غير السديدة، وبعض المعلومات الخاطئة عن الإسلام وعلمائه، فإن رسالة طيراس تبقى غنية بالمعلومات الدقيقة عن ظروف رحلات ركاب الحج البحرية، في بداية القرن ١٣ هـ/ نهاية القرن ١٩م، وعن مؤتمرات الصحة العالمية التي أصدرت قوانين منظمة لنقل الحجاج، وتناولت آفة تنقل الأوبئة من مكان إلى آخر وعدوى الأمراض فيما بين المسافرين، وأوجبت وقوف السفن في محطات حجر صحي لأجل الوقاية، وانبثقت عنها أنظمة وإجراءات جديدة من أبرزها مرافقة أطباء معتمدين للسفن من أجل المراقبة الصحية وعلاج المرضى توخيًا للحذر من وقوع المحظور وتجنبًا لما لا يُحمد عقباه من كوارث قد يذهب ضحيتها الآلاف من البشر إن لم نقل الملايين.

تم بحمد الله وتوفيقه،

المترجم، يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة عام ١٤٣٦هـ/ فاتح شتنبر ٢٠١٥م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة